

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

التراث العربي المخطوط في فلسطين

ندوة
قضايا المخطوطات (٤)
(٢٣، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠)

تنسيق وتحرير
د. فيصل الحفيان

معهد المخطوطات العربية
القاهرة ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

التراث العربي المخطوط في فلسطين (بحوث ومناقشات ندوة قضايا المخطوطات «٤») ، تنسيق وتحرير د. فيصل الحفيان . القاهرة : معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م / ٢٠٧ ص .

ط/٢٠٠١/٠٢/٢٠٠١/٠٠١

التراث العربي المخطوط

في فلسطين



الفهـرس

* * *

المشاركون

* **التخطيط والتنظيم والافتتاح والختام :**

د. أحمد يوسف أحمد محمد (مدير معهد المخطوطات العربية بالإنابة) .

د. فيصل عبد السلام الحفيان (منسق برامج المعهد) .

* **رؤساء الجلسات [على وفق ترتيب الجلسات] :**

د. أحمد فؤاد باشا (عميد كلية العلوم - جامعة القاهرة) .

د. حسين نصار (الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، ورئيس الهيئة الاستشارية للمعهد)

د. عبد الله حمد محارب (مدير المعهد سابقاً ، ومستشار مركز البحوث والدراسات الكويتية) .

د. أحمد مختار عمر (الأستاذ بكلية دار العلوم ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد) .

* **أصحاب البحوث [على وفق ترتيب بحوثهم] :**

د. كمال عرفات نبهان (مدير عام مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن سابقاً) .

أ. خضر إبراهيم سلامة (مدير مكتبة المسجد الأقصى والمتحف القدسي) .

د. أيمن فؤاد سيد (خبير مخطوطات ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد) .

أ. عصام محمد الشنطي ، (مدير المعهد سابقاً وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد) .

د. يوسف زيدان (مستشار التراث بمكتبة الإسكندرية ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد).

د. محمد عدنان البخيت (رئيس جامعة آل البيت في عمّان - الأردن) .

* **المعقبون وأصحاب المداخلات [على وفق ورود أسمائهم في المرة الأولى] :**

د. أحمد صدقي الدجاني (عضو مجمعي ، وأستاذ للتاريخ في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة) .

د. يوسف زيدان .

د. أيمن فؤاد سيد .

أ. محمد إبراهيم الشيباني (رئيس مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت) .

أ. أسامة ناصر النقشبندي (مدير دار صدام للمخطوطات - بغداد) .

أ. علي عليوه (صحفي) .

د. حمد بن ناصر الدخيل (عميد كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض) .

د. كمال عرفات نبهان .

د. فيصل الحفيان .

د. عادل سليمان جمال (أستاذ الأدب القديم بجامعة أريزونا - أميركا) .

أ. خضر إبراهيم سلامة .

د. أحمد يوسف أحمد .

د. محمد عدنان البخيت .

د. عبد الحميد مدكور (أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة) .

أ. مي الشافعي (إعلامية) .

د. محمد فتحي عبد الهادي (وكيل كلية الآداب - جامعة القاهرة) .

د. عباس طاشكندي (عميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز - جُدة) .

أ. عصام الشَّنْطي .

د. عبد الستار الحلوجي (الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد) .

* * *

قبل القراءة

إذا صدقت مقولة : ليس كل ما يسمع يقال ، فإن مقولة أخرى يمكن أن تصدق بالدرجة نفسها ، هي : ليس كل ما يقال يكتب . أقول هذا لأشير إلى أن مادة هذه الندوة ، ومواد غيرها من الندوات ، التي يصدرها المعهد في كتب مستقلة ، تخضع لتحرير صارم ، ولنقصر الحديث هنا على مادة ندوتنا الحالية ، لنكون أكثر تحديداً .

إن هذه الندوة تشتمل - كما هو معلوم - على بحوث ، وتعقيبات ومداخلات ، وكلمات افتتاح وختام .

والحق أن بعض البحوث قُبلت اتكاء على كمٍّ المعلومات الطيب الذي تحتويه ، لكن قيمة المحتوى لم يساوقها لَبوس لغوي ملائم . وعليه فقد أُعيدت صياغتها ، دون أن نعدو على المضمون ، زيادة ، أو نقصانًا .

كما أن التعقيبات والمداخلات ، وهي مما يرتجل ارتجالاً في العادة ، قد خضعت هي الأخرى للتحرير ، ووضعها في قالب لغوي رصين ، ونُفي منها التكرار والتردد والفضول .

ومن هذه النقطة الأخيرة تتفرع نقطة مفادها أن بعض هذه التعقيبات والمداخلات خرجت عن خط الندوة أصلاً ، وعن موضوعها وغايتها . ومثل هذه جرى إلغاؤها .

فعلنا ذلك حرصًا منا على أن تأخذ الندوة شكل الكتاب المنهجي العلمي المنظم ، المكتوب بنفَس واحد ، ورؤية واحدة ، في قضية واحدة ، والغرض أن تكون الندوة إضافة رصينة في بابها . والله - سبحانه - من وراء القصد دائمًا .

المحرر

الجلسة الأولى (الافتتاحية)



كلمة الافتتاح

د. أحمد يوسف أحمد محمد

اسمحوا لي في بداية هذه الندوة أن أدعو حضراتكم للوقوف دقيقة ؛ إجلالاً لشهداء الأقصى ، ولكل قطرة دم أُسيلت في سبيل الحقوق العربية في فلسطين .

وأود أولاً أن أرحب بكم ، وأن أعبر باسمي شخصياً ، وباسم معهد المخطوطات العربية ، وباسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، عن عميق الامتنان لقبولكم الكريم المشاركة في هذه الندوة ، وأخص بالشكر كل من تجشم مشقة الحضور من خارج مصر ، وكذلك كل من يساهم معنا في هذه الندوة ببحث أو بتعقيب أو برئاسة جلسة ، وأثق في أن مشاركة حضراتكم جميعاً في مداولات هذه الندوة ستمثل إضافة رفيعة لها .

كما أود أن أعبر عن سعادتي بانتظام انعقاد الندوة السنوية للمعهد عن قضايا المخطوطات ، فقد صارت تقليداً علميًا - نرجو له أن يكون راسخاً بإذن الله - وملتقى لمناقشة أهم قضايا المخطوطات العربية .

إن من يتابع نشاط المعهد يذكر أن هذه هي الندوة الرابعة عن قضايا المخطوطات ، خُصصت الندوة الأولى للتجارب العربية في فهرسة المخطوطات ، وخصصت الثانية لفن فهرسة المخطوطات ، ورأينا أن نلقي الضوء في الثالثة على التراث العلمي العربي ، واليوم في ندوتنا هذه نناقش التراث العربي المخطوط في فلسطين . وسيحدثكم د. فيصل الحفيان منسق برامج المعهد بشيء من التفصيل في هذا الصدد .

يأتي انعقاد هذه الندوة - بدون قصد منا - في وقت لا أحسَب أن ثمة أفضل منه . ففي اللحظة التي يرجم فيها أبناء فلسطين شيطان الاستعمار العنصري بما في

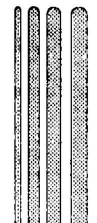
أيديهم من حجارة ، يجتمع اليوم نفر من خيرة مثقفي الأمة العربية عامة ، وفلسطين خاصة ؛ لكي يناقشوا شأناً يتعلق بهوية فلسطين الحبيبة الممتدة عبر الزمان ، وصولاً إلى هذه اللحظة التاريخية التي تصادف انعقاد ندوتنا معها .

وإنني لأثق في أن حصيلة ندوتكم ستقدم مساندة ولو متواضعة في ذلك النضال الممتد الذي قاده شعب فلسطين على امتداد القرن العشرين من أجل تثبيت حقوقه المشروعة في وطنه .

أكرر التعبير عن عميق امتناني وشكري ، وعن الثقة في أن حضوركم لن يثري موضوع الندوة فحسب ، بل سيثري قضية فلسطين بأكملها .

أرجو لكم كل التوفيق ، وأشكركم على حسن الاستماع ، وأدعو د. فيصل الحفيان ليحدثنا بتفصيل عن الندوة وفكرتها وموضوعاتها وغايتها .

* * *





فكرة الندوة

د. فيصل الحفيان

- ١ -

تهدف هذه الكلمة إلى تقديم الندوة وموضوعها ، وأبدأ بالسؤال التالي : هل نحن في حاجة إلى بيان السبب أو الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار « التراث العربي المخطوط في فلسطين » ليكون موضوعاً لندوتنا السنوية الرابعة ؟ . والإجابة – دون تردد – : لا . في ندواتنا السابقة كنا نثير سؤالاً أو أسئلة لنكشف عن السبب أو الأسباب التي قد تخفى حتى على بعض المتخصصين ، فقد كنا نثير مشكلات علمية ، أو فنية دقيقة ، تحتاج إلى بحث أو حل ، نتيجة لالتباسها، أو بعدها عن الأذهان . على سبيل المثال في ندوة العام الماضي ، وكان موضوعها « التراث العلمي العربي : مناهج تحقيقه وإشكالات نشره » أثرنا سؤالاً كبيراً عن مدى حاجة هذا النوع من التراث إلى مناهج خاصة به في التحقيق ، تبتعد قليلاً أو كثيراً عن المناهج المستخدمة في التراث الإنساني بصفة عامة ، وعن طبيعة الإشكالات التي يعاني منها هذا التراث (العلمي) بخاصة .

نحن في ندوتنا هذه لا نحتاج إلى مثل هذا السؤال . فإذا كانت قضية فلسطين قضية عامة مكشوفة للجميع ، فإن التراث الموجود في فلسطين جزء من هذه القضية .

- ٢ -

ولا يحسبن أحد أو يظن ظانٌّ أن الدماء التي تسيل على أرض فلسطين ينبغي أن تشغلنا عن التراث الموجود هناك ، فهذا التراث مستهدف أيضاً ، نعم مستهدف ، ففي الوقت الذي يحمل فيه الجندي الإسرائيلي سلاحه ليطلق الرصاص على رأس

فلسطيني أو صدره ، فإن جندياً آخر - لا نراه على شاشات التلفزيون - يحرق أو يحرِّف كتاباً ، أو وثيقة ، أو يبحث بين سطور هذا أو تلك عن طلقة من نوع آخر غير الذي نعرفه ، قد تزيد خطورتها عن طلقة البندقية ، ودانة المدفع ، وقنبلة الطائرة .

وهذا شأن اليهود عبر تاريخهم الأسود الطويل ، الذي يحكي لنا أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بيد ، ويحرفون كتبهم السماوية باليد الأخرى ، ذلك أنهم أدركوا بمكرهم الشيطاني خطر الكلمة وتأثيرها ، وعلموا أنهم عن طريقها يمكنهم أن يصلوا إلى مآربهم وأغراضهم الدنيئة .

- ٣ -

وعلى الرغم من هذا الربط بين ما يحدث والتراث ، فإن اختيار موضوع هذه الندوة ليس وليد الأحداث الدامية الأخيرة ، والتي لا تزال قائمة ، فقضية التراث في فلسطين حاضرة لدينا منذ فترة ليست بالقصيرة ، ولقد أثرنا في الاجتماع السابق لـ « الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي » التي انعقدت قبل عامين موضوع إنقاذ مخطوطات فلسطين ، وثمة خطة في هذا الشأن ، هي الآن موضع بحث ودرس من قبَل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تتبادل فيها الرأي مع الجهات المعنية في فلسطين ، ومع جهازها المتخصص ، معهد المخطوطات العربية . وما هذه الندوة التي نلتقي فيها اليوم إلا جزء من هذا النشاط . نريد من هذه الندوة أن تكون وثيقة متكاملة ، نهتدي بها في وضع خطة مدروسة لإنقاذ تراثنا المهدد في فلسطين ، وإنقاذ هذا التراث جزء بدوره من المواجهة مع الغاصب المعتدي .

- ٤ -

إن معهد المخطوطات العربية - كما تعلمون - معنيٌّ بالتراث ، مشغول به ، وهو حريص على أن يظل في الإطار المحدَّد له . وندواته المتخصصة التي يعقدها مُسخرة لهذه الغاية ، تقصدها من طرق مختلفة ، وتتناولها من جوانب متباينة . وتبقى الغاية في النهاية هي الغاية . في ندوة العام الماضي « التراث العلمي » ،

التي سبق الإشارة إليها كان البعد موضوعياً ، وفي الندوة التي سبقتها « فن فهرسة المخطوطات » كان البعد فنيًا ، وفي الندوة الأولى « التجارب العربية في فهرسة المخطوطات » كان البعد تأسيسيًا أو « مسحيًا » إن صح اللفظ . واليوم البعدُ بعد جغرافي ، فمهمتنا هي بحث قضية تراث عربي يقع في منطقة معينة ، ويعاني من ظروف حرجة ، وتهدده أخطار مختلفة . هي إذن أبعاد مختلفة تصبُّ في النهاية في خدمة التراث وقضيته .

– ٥ –

وإذا كان المعهد قد بحث في ندواته الثلاث السابقة قضايا التراث صِرْفةً ، أو خالصة ، فإنه لم يتمكن هنا من أن يفصل بين التراث وعنصر آخر ، هو عنصر السياسة . وأنَّى له أن يستطيع ذلك ، والسياسة تسري في حياتنا سريان الدم في العروق ؟

وهنا مفارقة لغوية لابد من التوقف عندها ، وتتعلق بدلالة كلمة « السياسة » . هذه الكلمة التي تدل على عدة معان : المعنى الأول : التدبير والرعاية والإصلاح ، ولعله المعنى الأصلي للكلمة . والمعنى الثاني : الترويض والتأديب ، وهذا خاص بالدوابّ . والمعنى الثالث : تولي الرئاسة والقيادة . وأحسب أن الظلال الحالية للكلمة قد تجاوزت حتى المعنى الثاني ، معنى الترويض والتأديب ، إلى معاني الظلم والتعسف والتعذيب والخداع . . . إلخ . ولهذا لا يسعنا إلا أن نترحم على الشيخ الإمام محمد عبده ، ونذكر قولته : لعن الله مادة ساس يسوس ومشتقاتها .

– ٦ –

في ندوتنا هذه محاضرتان : افتتاحية ، كلَّفْنا بها د. كمال عرفات نبهان ، مدير مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، بلندن ، سابقاً ، أو ورّطْناه بها – على حدّ تعبيره – وموضوعها « السياسة والتراث في فلسطين » ، وقد توخَّى فيها بالاتفاق

مع المعهد ألا تقترب من السياسة، إلا بالمقدار الذي تقترب السياسة فيه من التراث ، مؤثرةً فيه ، ومنعكسة عليه .

وختاميةٌ ، واخترنا أن تكون لبحث هَدَفَ إلى رصد الجهود التي قام بها بلد عربي هو الأردن في خدمة مخطوطات فلسطين . وقد خصصنا الأردن ، لأنه البلد العربي الذي قام بجهد كبير في هذا الصدد ؛ فقد قام بحملة كبيرة لتصوير مخطوطات فلسطين ، كما أن معظم الفهارس الخاصة بمخطوطات فلسطين صدرت عن مؤسسات أردنية . وقد شرَّفَنا د. محمد عدنان البخيت ، رئيس جامعة آل البيت في عَمَّان بقَبول دعوتنا للحديث في هذا الموضوع .

- ٧ -

ونأتي إلى جزء جوهري في هذه الندوة ، ويتمثل في بحثين : أحدهما استهدف رسم خريطة للتراث المخطوط في فلسطين ؛ حتى نتعرف على تضاريس هذا التراث ومواقعه ، سواء كان موجوداً في فلسطين حيث السلطة ، أو كان في ذلك الجزء الذي تسيطر عليه إسرائيل . وقد نهد إلى هذا البحث ضيف الندوة ، أ. خضر إبرهيم سلامة ، من فلسطين .

وثانيهما قام به د. أيمن فؤاد سيد ، خبير المخطوطات ، وأحد أبناء المعهد سابقًا ، ويتناول نفائس المخطوطات في فلسطين ، بما يكشف لنا عن قيمة هذا التراث وذخائره .

- ٨ -

وكان لابد من استقراء تاريخي للماضي ، نرصد فيه تلك الجهود التي بُذلت في وقت مبكر للتعريف بمخطوطات فلسطين ، وقد نهض بعبء هذا البحث أ. عصام الشَّنْطِي ، مدير المعهد الثاني سابقاً ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد .

ثم كان هناك بحث تقويمي ، نهد إليه د. يوسف زيدان ، مستشار التراث في مكتبة الإسكندرية ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد ، وقدم لنا نقداً لبعض الفهارس التي صدرت لمخطوطات فلسطين .

- ٩ -

وإلى جانب هؤلاء الباحثين شَرَّفَنا عدد من الضيوف من خارج مصر ، من السعودية د. عباس طاشكندي ، عميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، ومن الكويت د. عبد الله حمد محارب ، مدير المعهد سابقاً ، ومستشار مركز الدراسات والبحوث الكويتية ، ومن العراق أ. أسامة ناصر النقشبندي ، مدير دار صدام للمخطوطات ، ومن أميركا د. عادل سليمان جمال ، أستاذ الأدب القديم في جامعة أريزونا ، بالولايات المتحدة .

ولن ننسى أن نوجه الشكر جزيلاً إلى أعضاء الهيئة الاستشارية للمعهد ، والأساتذة الأفاضل الذين يشاركون في الندوة برئاسة الجلسات ، والتعقيب على البحوث ، وإثرائها بوجهات نظرهم وخبراتهم ومعارفهم .

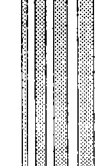
- ١٠ -

ونختم بالقول : إننا نأمل أن نكون قد أسهمنا بهذه الندوة في خدمة جزء من تراثنا ، يقبع في جزء غالٍ من وطننا العربي ، ونتوجه إلى الله جميعاً بالدعاء أن يخرجه من محنته ، ويفرجَ كربة أهله ، فالكربة كربتنا ، والأهل أهلنا .

شكرًا لكم على حسن الإصغاء ، وسعة الصدر وأدعوكم إلى المحاضرة الافتتاحية ، التى حان موعدها .

الجلسة الثانية

المحاضرة الافتتاحية



السياسة والتراث المخطوط في فلسطين



« دراسة تمهيدية »

د. كمال عرفات نبهان

■ **د. أحمد فؤاد باشا (رئيس الجلسة) :**

لا شك أن هذه الندوة قد جاءت في وقتها ، فنحن الآن نعيش انتفاضة الأقصى المباركة ، والجميع مطالب بمساندتها . والحق أن ندوتنا تضيف بعداً جديداً إلى أبعاد المساندة ، ذلك أنها صورة حضارية للغاية من صور التضامن الذي تحتاج إليه قضية فلسطين عامة ، والأقصى خاصة .

وموضوع المحاضرة التي نفتتح بها الندوة هو « السياسة والتراث المخطوط في فلسطين » ، موضوع مثير سيكشف لنا بعض المستور الذي قد لا نعرفه ، وسيلفتنا إلى أمور كنا عنها غافلين . والمتحدث د. كمال عرفات نبهان ، مدير عام مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، بلندن سابقاً ، وهو قبل ذلك واحد من المشغولين بهَمّ التراث عامة ، وله بحوث ودراسات عديدة في العلاقات التي تربط بينه ، وأظن أنه بعقليته المنظمة وأفقه الواسع سيضع أيدينا على تلك العلاقات الظاهرة والخفية بين التراث والسياسة ، فليتفضل مشكوراً .

* * *

في بداية حديثي أوجه الشكر إلى معهد المخطوطات العربية الذي اختصني بمهمة التحليق في سماء هذا الموضوع . واكتشفت بعد موافقتي أنني دون أجنحة للطيران ، فالموضوع يحتاج إلى سنوات من الدراسة الميدانية والوثائقية المتأنية ، وإلى حكمة الشيوخ وحماسة الشباب ، وقد أسعفني الأصدقاء بأجنحة كثيرة ، ومصادر هامة ، شجعتني على أن أعرض هذا الإطار التمهيدي ، وقد يكون الإطار مُذهباً ، ولكن ملامح الصورة باهتة ، لعلها تتحدد بمرور الأيام وتراكم الجهود وبالمقاربة والدراسة الميدانية للمشكلة .

وتخيلتُ صورةً طريفةً لمن يقيم وليمة ويطلب من الضيوف إحضار الطعام معهم ، وهذا هو الحال في هذا اللقاء ، فأنا أخشى أن كثيراً من الأساتذة الذين أشرف باستماعهم إليّ الآن ، والقراء غداً ، يعرفون أكثر مما أقول في هذا الموضوع ،

سواء لأنهم خبَروا الميدان ، وعايشوا أحداثه ومعطياته ، أو لأنهم يمتلكون المزيد من المصادر ، أو لأنهم جزء من واقع وتاريخ ما زلت أطالع بعض سطوره ، أو لأنهم أكبر مني سناً وخبرة .

هذه الدراسة دارسة إطارية ، تسبق التعمق الميداني والتاريخي والوثائقي والببليوجرافي ، ورؤية هيكلية عامة للموضوع مع نماذج مما أمكن الاطلاع عليه ، وهدفها كشف العلاقات بين السياسة والتراث المخطوط في فلسطين ، وما لها من انعكاسات سلبية أو إيجابية على هذا التراث ، مع تصورات واقتراحات لحماية هذا التراث من العدوان .

والسياسة المقصودة هنا مجموعة معقدة من الألعاب والمباريات والمواجهات بين طرفين : الأول هو الصهيونية الغازية المستوطنة المحتلة الطاردة الملتهمة ، ذات المخططات والأجهزة الفاعلة المستمرة المتدرّجة في خطواتها ، والطرف الآخر هو الفلسطينيون ومعهم بعض العرب ، الذين فوجئوا ، وهم يخرجون من سراديب وضبابات الأنظمة الاستعمارية المتعاقبة ، ونماذج الحياة القريبة من عصور السيف والحصان ، ونسَب الإدراك البسيطة للعالم ، وغياب الذاكرة الحضارية لأجدادهم في نومة تاريخية طالت ، وغفوة حضارية تطاولت ، فوجئوا بالعالم يلقي على أرضهم بمشكلة الصهيونية ؛ لكي يتخلص منها الغرب ويغسل يديه ، أو هكذا تصوّر ، ولسوف يدفع الغرب ثمن ذلك غالياً ، حينما يحين وقت الندم والحساب التاريخي ، وينتهي العصر الذي أسميه « عصر قتل العرب والمسلمين » من جانب حضارة الغرب ، وعصر « الرضا بالهوان » لدى العرب ، الذين اختلط عليهم الرضا بالهوان مع الحبيب ، بالرضا بالهوان مع العدو الكئيب ، القادم من آفاق الأرض ، وكذلك العدو الذي مازال يحكمهم بنظرية التفويض الإلهي ، وقوالب العصور الوسطى .

والسياسة هنا أيضاً هي فن الممكن الذي استطاع تحقيقه المعتدي ، والممكن الذي كان وسوف يكون لدى الفلسطينيين والعرب ، حسب جدلية التاريخ بكل ما تظهره وتخفيه من صراع الشيء ونقيضه ، وحتمية تولُّد الجديد « الكيفي » ، من القديم « الكمّي » ، وتلك هي قوانين التاريخ التي لا تُستأنس ولا تَرْتَشي .

والسياسة هنا أيضاً مساحة للحركة والصراع على مدرج هرمي ، قمته الحرب العسكرية . وخلال هذه المساحة للصراع السياسي بين الأمم ، يوجد الصراع الثقافي والفكري والعلمي ، وأهم جنود هذه المعركة هم العلماء والمفكرون ، وقد اهتم بهم الغرب والصهاينة ، وأصبح الملوك والرؤساء يتشرفون بالاقتراب من العلماء والمفكرين وتكريمهم ، في حين انتكس وضعهم في العالم العربي والإسلامي حتى أصبح سعر العَالم والمفكر حفنة من شعير الإبل ، ومكانه المسموح به هو في ذيل الموكب وأطراف حَاشية الحاشية ، ونشأتْ أجيال من « هؤلاء » لم تعرف لها دوراً غير ذلك ، فتفننوا في ارتداء أثواب الهوان ، وأصبحت «المؤسسات» العلمية والثقافية في حالة مزرية ، وبها ذاكرة الأمة ، تؤكل وتتآكل .

وذلك تحديداً إطار هذه المعركة ، التي هي المخطوطات العربية والإسلامية في عمومها ، ومخطوطات فلسطين في تخصيصها .

وكانت العقود السابقة تشهد بأن العرب والمسلمين أتقنوا فن الهزيمة وهدر الإمكانية ، وتكبير الحقير ، وتحقير الكبير ، وأصبحوا على الرغم من كثرة أعدائهم أعداءَ أنفسهم وتاريخهم وتراثهم وكذلك مخطوطاتهم .

والمخطوطات عند أية أمة ، هي الذاكرة المخطوطة للأمة ، قد تكون ذاكرة صخرية منحوتة ، أو جلدية ، أو بردية ، أو ورقية .

ومخطوطات العرب والمسلمين تُعد واحدةً من أكبر مدونات ذاكرة هذه الأمة ، فهي نتاج لعبقرية التدوين ، التي تجلت بتدوين القرآن الكريم ، في لحظة مشرقة من

ذاكرة الإنسانية ، ثم عصر التدوين لكل آدابهم وعلومهم ، وهو نفسه عصر الإفاقة والتذكر والسيادة العربية .

وأي معركة تحلو للعدو أفضل من المعركة مع ذاكرة الأمة المدونة في سجلات الذاكرة الخارجية ؟ خصوصاً في فترة مرض هذه الأمة وإصابتها في الرأس ، أو في الذاكرة الداخلية بتعبير آخر .

إن هذه الدراسة ترصد لمحات من ومضات الصحوة ، وجذور الأصالة ، وإرهاصات البعث ، ومكر التاريخ بمن يمكرون .

والغريب أن المخطوطات حتى لو سرقها العدو ، فإنها تعمل بذاتها ، حتى في تلافيف مخه وخلايا حضارته ، إنه مكر التاريخ وحقيقية الحقيقة .

ولكن الخطر وقع ، فانشغل العرب - بعد طول فترة التلكؤ - بالمعارك العسكرية ، وجادوا بالشهداء تلو الشهداء ، ولكنهم أهملوا القضايا - بل المعارك - الثقافية ، وخسروا جولات خطيرة ستكون مخصومة من رصيد المستقبل البعيد إذا لم يتمّ تداركها !

وقد تنتهي حرب المدافع والقنابل ، ولكن حرب الثقافة والهوية لن تنتهي ، وخصوصاً مع الصهيونية ، وهي خليط شيطاني من تسخير الاستعمار الغربي لبارانويا التميز وعقد الاضطهاد التي تخمرت في ثقافة الجيتو !

أبعاد المشكلة :

مشكلة الفكر الصهيوني في مواجهة العرب في فلسطين ثم في العالم العربي ، ذات أبعاد ثلاثة :

- الأرض الفلسطينية وامتداداتها في الاتجاهات الأربعة !

- الإنسان الفلسطيني .

- التاريخ الذي يشمل أصالة الإنسان على أرضه وثقافته ومقومات وجوده المعنوي والروحي واللغوي ، على الرغم من القتل والتجويع والشتات والإذلال والتجهيل .

ولكن الحَجَر « المثقف » ، صاحب التاريخ أصبح يواجه الدبابة ، مريضة الثقافة ، عريضة القفا ، فاقدة التاريخ .

إن المخطوط يساهم في تقوية ضارب الحجر ، ووقْع ضربته ، فالحجر هنا رغم فقره وبدائيته وفطريته تسانده ذاكرة حضارية بدأت تتوهج في أتون الظلم والقهر والمذلة الفلسطينية والعربية .

والمخطوط وعاء للثقافة والقيم الحضارية ، و « كبسولة » للتاريخ المكثف عربيًا وإسلاميّاً ، وفلسطينيّاً ، وكما تصب هذه الكبسولة في العقول ، تصب في الجينات في شكل موروثات ثقافية كما يرى كارل يونج ، وسوف تنتصر جينات الثقافة على جينات التلكؤ والخنوع عند العرب .

والآن إلى جولة سريعة في الأبعاد الثلاثة للمشكلة ، وتعامل الصهيونية مع هذه الأبعاد :

* أما الأرض ، فقد تم التهام معظمها ، ويعز على الصهيونية أن تترك أشرطة بل حتى «كانتونات » ، يقف عليها الفلسطينيونَ ولو كانت ضيقة مثل سجون الطغاة ، خانقة مثل محارق الجير الحي .

* وأما الإنسان الفلسطيني ، فقد تَمَّ تهجير معظم السكان ، واستمر التعامل معه بالقتل والتسميم البيولوجي والكيميائي والجيني ، وبالحصار والتجويع وإفساد الذمم والتقاط الخونة ، حتى وُضع الجميع في دائرة العُزلة واليأس والصمت العالمي المريب والمخجل ، وسوف يندم العالم أشد الندم على جريمة الصهيونية كما ندم على جرائم النازية والفاشية والمكارثية وإبادة سكان أميركا وأستراليا . . . إلخ ،

ولكن بعد أن يكون حجم الجـريمة أعظم من أي نـدم ، وهل يسـوغ النـدم ويبرد نـار « النابالم » التي أحرقت أجساد أطفال فيتنام على يد جنود أميركا ، ويحدث مثله الآن لأطفال فلسطين !

* وأمـا التـاريخ فله مـعـهم شـأن آخـر ، يتـعـاملون مـعـه بطول النفَس ودهاء التخطيط ، ولا أقول : براعته ، فلا براعة للنظريات الحتمية ، بل إن لها صولات وجـولات ، ولكن كل قـوانين الكون المادية والإنسـانية ضـد الحـتمـيـات المريضـة ، والعنصريات العرقية مثل عنصرية النازية والصهيونية .

ومن مظاهر هذه الخطة طويلة النفس :

١ - تأكـيد تاريـخهم وتضـخـيم أحداثه المحـدودة مسـتـخدمين في ذلك علم التاريخ المزيف وفنون الإعلام والسينما الفاضحة في تحيزها وكذبها ، وهي الباذخة في إمكانياتها وتكنولوجياتها وسطوتها الإعلامية ، وكذلك وقاحتها .

٢ - التشكيك في تاريخ أمم عريقة مثل مصر القديمة ، على الرغم من الآثار التي تحكي هذا التاريخ بشموخ ووضوح ، وتحقير وسائل بنائها باعتبارها عبودية للفرعون ، وهو جَد ذلك الذي طردهم ، وكأنهم وغيرهم من الشعوب قد عرفوا الحرية والديمقراطية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة . وكذلك التشكيك في تاريخ الإسلام ، وتشويشه بمظاهر من تخلف المسلمين في حالتهم المزرية في بعض أنحاء العالم .

٣ - سرقة التاريخ ، بادعاء أنهم بناة الأهرام ومهندسوها ، بل بادعاء وجود وثائق يهودية ، تحت بعض هذه الآثار المصرية القديمة .

٤ - سرقة مظاهر الثقافة العربية والفلسطينية والمصرية ، مثل الأزياء الشعبية والموسيقى .

٥ - حذف جزء من صورة بيت المقدس ، وهو الجزء القديم الأصلي ، وإبراز صورة قبة الصخرة ، حتى إذا هدموا الجزء القديم استطاعوا تمرير هذا العمل وتحويل

أنظار العالم إلى قبة الصخرة الموجودة التي ثبّتوا صورتها في ذاكرة العرب والمسلمين والعالم .

٦ - فرض ممنوعات تاريخية ولفظية معينة على دول عربية ، لا يقترب منها موظفو الإعلام ، ولا تقترب منها المقررات المدرسية ؛ تمهيداً لنسيان جرائمهم ضد شهدائنا وأطفالنا .

٧ - مطالبة العرب - تحت دعاوى السلام - بنسيان الماضي تماماً ، في حين يرتكزون هم على كل خرافاتهم التاريخية ويثبِّتونها ، في لعبة يتعرى فيها العرب من ملابس آبائهم ، وتتستر الصهيونية بأغطية مستعارة ، وما أكثر استهتارهم بالنسب العقلية للعرب وعجز منطقهم وعقولهم ، على الرغم من ضخامة أجسامهم .

تجارب الآخرين :

تعرضت من قبلُ أمم وشعوب لأخطار الحرب التي هدَّدتْ تراثها الثقافي المادي بكل أشكاله ، وكانت هناك دائماً دفاعات خفية ، ليس لها بريق العمليات الحربية ، قامت بها هذه الأمم لإخفاء كنوزها الثقافية من دمار القنابل أو سطو العدو إذا تمكن وتوغل .

ونذكر تجربة اليابان في إخفاء آثارها المنقولة أثناء الحرب ، وتجربة مصر في إخفاء كثير من مقتنيات دار الكتب المصرية في القلعة أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ خوفاً من قنابل الطائرات ، وحكمة فرنسا في الحفاظ على آثارها وكنوزها في الحرب العالمية الثانية ، على الرغم من هزيمتها واستسلامها ، وكانت موقنة بأن هتلر سينهزم يوماً ، ويخرج منكسراً ، ولكن تراث الحضارة سوف يبقى في فرنسا وغيرها .

وتوصل شعب الجزائر إلى الحكمة نفسها ، فأخفى الجزائريون مخطوطات آبائهم وأجدادهم في الكهوف وشقوق الجبال ؛ خوفاً من بطش الجيش الفرنسي المحتل ، واكتسبت هذه المخابئ قدسية مع مرور الأيام ، وكانت المعركة هناك ثقافية بكل معاني هذه الكلمة ، وحرم العدو على الجزائري كل مقومات اللغة والدين

والفكر العربي ، وامتدت العداوة حتى وصلت إلى تحريم المصحف ، والكلمة العربية ، بل امتدت إلى الفن المصري ، وخاف الجنرالات من كل أشكال الفن الناطق بالعربية ، وانهزم المدفع ونجح الفن وبقيت المخطوطات ومقومات الثقافة .

وتتجلى روعة الصراع الثقافي في معركة البوسنة من أجل البقاء ، في مواجهة بطش الكروات والصرب وخطة إبادة الوجود الإسلامي في أوربا ، التي حظيت بموافقة خفية من خبثاء السياسة هناك ، وانهالت نيران الصرب تحرق الإنسان البوسنوي جسديًا وجغرافيًا وثقافيًا ، فتطارد كل المقومات الثقافية من آثار إسلامية ومخطوطات ؛ لكي تمحو التاريخ من فوق الأرض ، فماذا فعل مقاتلو البوسنة ؟ لقد تنبه بيجوفيتش على الرغم من انشغاله بالحرب الرهيبة إلى نية الصرب إبادة المخطوطات العربية والإسلامية في البوسنة ، وبعد أن دمر الصرب وأحرقوا مكتبة معهد الاستشراق في سراييفو بمخطوطاتها الجميلة ، خصص قادة البوسنة فريقاً ؛ لإنقاذ مكتبة أخرى بالغة العراقة والثراء هي مكتبة الغازي خسرو بك ، وتحت نيران المدافع وبين أشلاء الجثث كانت هناك كتيبة تهرّب المخطوطات من مخبأ إلى آخر ، طيلة زمن الحرب ، حتى استقرت الآن في مبنى قديم ، واستمرت عمليات فهرستها ونشر فهارسها في مسلسل طويل من الأداء المخلص ، كما تم تصويرها كاملةً بألوانها وفنونها في مشروع قامت به مؤسسة الفرقان في لندن .

وأصبح إنقاذ المكتبة في حاجة إلى مؤرخ يرصد إنقاذ جزء من ذاكرة الإنسانية ، يتمثل في أحد عشر ألفاً من المخطوطات العربية والفارسية والبوسنوية ، والتركية ، توجد منها الآن نسخ كاملة مصورة بألوانها في بنك المخطوطات بمؤسسة الفرقان في لندن، مع فهارسها المطبوعة .

وهناك قصص في كل مراحل التاريخ تحكي انتصار المفكر الأصيل على الجنرال المستعمر ، وتؤكد لنا تفوق الكلمة والكتاب على المدفع والنار .

تراث فلسطين المخطوط :

كانت المكتبات الأولى التي عرفتها فلسطين هي :

- مكتبات الأديرة المسيحية ، وكان بعضها موجوداً في فلسطين قبل دخول الإسلام إليها .
- مكتبات المساجد بعد الفتح العربي الإسلامي ، وكذلك مكتبات الزوايا .
- مكتبات المدارس ، وأقدمها دار العلم الفاطمية في القدس التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القرن الخامس الهجري ، على غرار مكتبة دار العلم الفاطمية في القاهرة .
- المكتبات الخاصة لدى الأفراد من العلماء ثم العائلات .
- المكتبات العامة ، وقد ظهر أولها عام ١٩٠٠ ، وهي المكتبة الخالدية بالقدس .

وثمة جهود كثيرة بُذلت في إنشاء مجموعات للمخطوطات في مؤسسات عديدة ، تحتاج إلى تأريخ خاص بها ، ومن الممكن أن نذكرفي هذا السياق ، ما قام به أحمد باشا الجزار في نهاية القرن الثامن عشر حين أنشأ في مدينة عكا ثلاثة آثار ، هي المسجد ، والسبيل ، والسوق ، وكان بالمسجد مدرسة ، ومكتبة ، ولم يبق من المدرسة سوى الأثر ، أما المكتبة ، وتُسمى الأحمدية ، فما تزال بعض محتوياتها من المخطوطات موجودة حتى اليوم ، وبعضها يحمل توقيع الجزار نفسه ، وحظيت هذه المجموعة بفهرس مطبوع ، هذه المجموعة موجودة الآن في الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ .

وفي بدايات القرن العشرين اهتم المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بإنشاء اثنتين من دور الكتب الإسلامية في المناطق الفلسطينية ، هي :

- دار كتب المسجد الأقصى .

- دار الكتب الإسلامية في يافا عام ١٩٢٣ ، وهي مجموعة مخطوطات حُفظت في مسجد النزهة في يافا ، وتُركت منسية ، عددها ٣٣٩ مخطوطة ، تم تصويرها على ميكروفيلم ، وحُفظت المخطوطات في مكتبة النادي الإسلامي في يافا ، ومعظمها بالعربية ، وقليل منها بالتركية ، وأربع بالفارسية ، ويعود أقدمها إلى القرن السابع الهجري .

الأعـــداء :

يعــرف علمــاء المخطوطات في كل بلاد العــالم أن هناك أعــداء تقليــديين للمخطوطات ، ولكن البلاد الفقيرة منكوبة بعدد أكبر من هؤلاء الأعداء . ويمكن أن تتضح هذه الصورة من استعراض القائمة التالية بهؤلاء الأعداء :

١ - الطبيعة ، ولها جنود من الحشرات نشطة في التهام أوراق المخطوطات وجلودها ، إلى جانب الفطريات وعوامل الرطوبة والحرارة وفساد الهواء وسوء التخزين .

٢ - الجهل والفقر والتخلف لدى أكبر عدد من شعوب العرب والمسلمين في آسيا وإفريقيا ، ويصل الجهل ببعض الناس إلى إلقاء المخطوطات في الأنهار ؛ حتى لا تتعرض الكلمات المقدسة للأيدي !

٣ - الطمع والجشع من سارقي الشعوب وتراثها ، الذين نهبوا ما نهبوا - منذ الحروب الصليبية حتى الآن - من المخطوطات العربية والإسلامية ، يساعدهم في ذلك فئات من البلاد العربية والإسلامية ، تعرض المخطوطات في أسواق أوربا بعد تهريبها ، ومنها تحف رائعة الجمال ، نادرة المثال ، وقد أصبح الجاني يأتي من الخارج والداخل ، وما زالت قرون التخلف والاستلاب مستمرة بدرجة أو بأخرى في البلدان العربية والإسلامية .

٤ - الحروب التي عانت منها بلاد العرب منذ قرون طويلة ، وأصابت المخطوطات العربية إصابات مهلكة . وكان نصيب فلسطين من هذه الحروب وافراً ومدمراً عبر القرون ، وكان إلى جانب الحروب محن أخرى مثل الفتن الأهلية والحرائق والزلازل .

٥ - وإذا كان تهريب المخطوطات العربية والإسلامية وسرقتها ونزوحها إلى بلاد أجنبية مأساةً ، فإن بقاءها في بلدانها الأصلية كارثة ، فهي ترقد بانتظار أقرب الأجلين : الفناء ، أو السرقة !! ويالها من مفارقة أو معادلة صعبة .

والتراث المخطوط في فلسطين تعرَّض لكوارث مدمرة حتى لم يعد في فلسطين مخطوطات أصلية ، مما أُلف في القرنين الثاني ، والثالث للهجرة ، وما وصل منها بعد ذلك نسخ مأخوذة عن الأصلية ابتداءً من القرن السابع للهجرة .

ومن أخطر تلك الكوارث ما فعله الصليبيون في رجب عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، عندما استولوْا على بيت المقدس ، وقتلوا أهل البلد جميعاً إلا اليسير ، وأحرقوا ودمروا المساجد والمدارس بما فيها من مخطوطات ، وكان من بين ما أحرقوه مجموعات كبيرة من المصاحف النادرة في المسجد الأقصى ، كما دمروا دار العلم الفاطمية التي أنشأها الحاكم بأمر الله على غرار دار العلم الفاطمية في القاهرة .

وكانت هناك كارثة مجاورة لفلسطين ، عندما نهب الإفرنج مكتبة دار العلم الشيعية ، التي أسسها بنو عمار في طرابلس الشام ، وزودوها بآلاف مؤلفة من الكتب، ثم نُهبت عام ٥٠٣هـ ، في السنوات الأولى للحروب الصليبية .

وبعد عام ٥٨٣هـ ، دخل صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس ، وأعاد إنشاء المدارس ، وزود المسجد الأقصى بالكتب الدينية والعلمية . واستمر الأيوبيون ثم المماليك على ذلك النهج .

ولم تسلم المخطوطات حتى من الجيش البريطاني ، الذي أتلف في الحرب العالمية الثانية المخطوطات التي كانت في زاوية آل ضمرة ، في قرية مزارع النوباني ، بقضاء رام الله ، والتي كان عمرها ثلاثة قرون .

وابتُليتْ فلسطين بهجمة الصهيونية التي جمعت كل خصائص الاستعمار وفلسفاته ، فهي تحتل وتستوطن وتشرّد أهل البلد ، وتبيدهم بفنون إبادة الجنس أو «الجينوسيد» ، وكذلك بفنون إبادة الثقافة والهوية ، وما أكثر الظروف المساعدة !

إن الصهيونية تجاوزت ما فعلته فرنسا في سعيها لفرنسة العرب ، فإذا كانت فرنسا تركت للعرب وقتاً يتنفسون فيه ، فإن تلك لم تترك مثل ذلك في سعيها نحو عبرنة العرب أو صهينتهم ، ومن ثم إبادتهم .

وكانت الضربات قاصمةً ، والعالم العربي كله ما يزال يستشفي من آثار تدهور الدولة العثمانية والتخلف السياسي والاجتماعي والعلمي ، ومن جروح الاستعمار الذي التهم غنائم السلطنة الراحلة .

وحلّت الكارثة في عام ١٩٤٨ ، فاحتل الصهاينة معظم فلسطين ، ويمكن أن نلخص ما حدث في ما يلي :

١ - سقطت في أيديهم مئات من المكتبات العامة وآلاف من الكتب والمخطوطات .

٢ - دمروا كثيراً من المكتبات تدميراً كليًا نتيجة الحرب .

٣ - سرقوا الكثير من المكتبات ، ونهبوا ما فيها .

٤ - صادروا المقتنيات التراثية في المدينة المقدسة . ومنذ احتلال الصهاينة للقدس عملوا على سلب المخطوطات والوثائق المتعلقة بالقدس الشريف بخاصة ؛ تمهيداً للاستيلاء عليه في غياب الذاكرة العربية .

وقد تم إنقاذ عدد ضئيل من الكتب والمخطوطات التي نُقلت بعد عام ١٩٤٨ إلى المدن الفلسطينية .

وإثر حرب ١٩٤٨ تعرض كثير من المؤسسات العربية والإسلامية وغيرها للتخريب والإهمال ، وسقطت مدن عربية هامة ، مثل عكا ويافا وغيرهما ، بما فيها من مخطوطات في يد الدولة الصهيونية ، وعلى الرغم من وجود هذه المكتبات حتى الآن في عكا ويافا ، فقد نَهبتْ إسرائيل منها قدراً كبيراً .

وكانت أول سرقة بعد ١٩٤٨ في فلسطين المحتلة ، والثانية بعد نكسة ١٩٦٧ في الضفة الغربية وغزة ، وبدأ التطاول على مكتبات القدس الشرقية ، ومنها المكتبة الخالدية .

وهكذا لقيت المخطوطات على يد الصهيونية أنواعاً من العدوان تمثلت في :

- الإحراق والتدمير .
- النهب والاغتصاب .
- التدخل في تحقيق بعض هذه المخطوطات بشكل انتقائي ، يخدم أهدافاً صهيونية كما سنرى .

- إفقار الشعب الفلسطيني حتى أصبحت حالة كثير من المخطوطات في مكتبة المسجد الأقصى ولدى كثير من العائلات سيئة جدًا ، وتعاني من سوء التخزين ، إلى جانب المشكلات المالية ، ونقص الخبرات المؤهلة في المكتبات ، وتهالك الأبنية ، وكثير من المصائب الأخرى التي تترتب على الفقر والتجويع والإحباط ، تلك التي تدمر الإنسان والبيئة والذاكرة .

ويظل عداء الصهيونية للتراث والفكر العربي والإسلامي مستمرًا بخطة طويلة النفس ، والعرب مشغولون بالحرب العسكرية التي أرهقتهم طويلاً ، ولم ينتبهوا إلى الحرب الثقافية القائمة والمستمرة إلا بعد مرور نحو ٦٠ عاماً من هذه الحرب !

ولكن ماذا يهمّ الصهاينة من المخطوطات العربية والتراث العربي والإسلامي ؟ إن أكثر ما يهمهم هو التاريخ المحلي والتراجم المحلية ، والإسرائيليات التي تغلغلت في الفكر الإسلامي وفي التفاسير القديمة بسذاجة وحسن نية ، وتركها علماؤنا الأفاضل لضيق وقتهم أو حيائهم ، وكذلك الأدب المحلي والفولكلور الشعبي .

وحَرَص الصهاينة على تضخيم التراث اليهودي ، وتعظيم أثره في التراث العربي ، وضخّموا من قدر بعض المتنسبين اليهود إلى الفلسفة أو غيرها في التاريخ العربي الإسلامي ؛ لكي يظهروا بمظهر صناع الحضارة ومعلمي الشعوب .

نماذج للعدوان :

* المكتبة الأحمدية في عكا (فلسطين المحتلة ١٩٤٨) :

تحمل المكتبة اسم أحمد باشا الجزار (ت ١٨٠٤) ، الذي أنشأ عام ١١٩٦هـ / ١٧٨١م مسجداً ومكتبة ، وما زالت بعض مخطوطات هذه المكتبة موجودة حتى اليوم ، ويحمل بعضها توقيع الجزار نفسه .

وقد تمت فهرسة المخطوطات الباقية بها في (فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية / إعداد محمود علي عطا الله ، عمّان ، ١٩٨٣) . وفي هذا العام ١٩٨٣ ، أظهر الجرد أنه لم يعد بها سوى ثمانين مخطوطة ، وهي لا تمثل سوى النزر اليسير ؛ لأن قسماً من هذه المخطوطات (فُقد لسبب أو لآخر) على حد قول مفهرس المجموعة ، والمعنى مفهوم بالطبع .

ومن أوضح مظاهر الاستيلاء انتقال مخطوطة للواسطي ، بعنوان « فضائل البيت المقدّس » من هذه المكتبة في عكا إلى الجامعة العبرية في تل أبيب ، وتحقيقها على يد باحث إسرائيلي في الجامعة ، كما سنوضح في ما بعد .

* مكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل :

كان بها عدد كبير من المخطوطات ، والآن لا يتجاوز عدد مخطوطاتها ٨٤ مخطوطة . ويحتاج الأمر إلى البحث في أسباب فقدان بقية المجموعة .

* المكتبة الخالدية(*) في القدس :

تقع في طريق باب السلسلة بالبلدة القديمة ، وهو من أبواب الحرم الشريف الرئيسة ، وهي على بعد مئة متر من الحرم ، كما تطل على حائط البراق (وليس حائط المبكى ، كما يقول الصهاينة ، وينقُل عنهم العرب !) .

وتعود النواة الأولى لهذه المكتبة إلى وقف من القاضي طه بن شرف الدين الخالدي عام ١٦٦٠ ، ثم تابع وقف الكتب محمد صنع الله الخالدي ، منذ عام ١٧٢٠ ، وتراكمت عليها مجموعات من المخطوطات من أفراد الأسرة ، من اختيار مشايخ العائلة جيلاً بعد جيل ، كما ساهمت فيها بعض سيدات الأسرة بشراء مجموعات من المخطوطات . وفي عام ١٨٨٦ تم تجميع كل مخطوطات العائلة في مكان واحد ، وجعلتها الأسرة مكتبة عامة منذ عام ١٩٠٠ ، وخُصص لها إيراد من أوقاف العائلة بالقدس .

وتوجد المكتبة الخالدية في مبنى أثري قديم ، هو ثاني أقدم بناء مملوكي في المدينة المقدسة ، وهو مقبرة لثلاثة من الأمراء الخوارزمية الذين جاءوا لمحاربة الصليبيين ، أولهم الأمير حسام الدين بركتخان ، المتوفى ٦٤١هـ ، وبعض أبنائه . وقد بُني مقر المكتبة عام ١٨٩٨ مكان بناء متهدم ملاصق لهذه المقبرة ، وتشمل مجموعة المكتبة دوائر هامة من التراث : تراث القدس وفلسطين المحلي ، ثم التراث العربي الإسلامي ، في دوائر متسعة .

(*) تنسب العائلة إلى خالد بن الوليد ، وعائلة الخالدي من أقدم العائلات الفلسطينية ، وأوثقها صلة ببيت المقدس، تولت مناصب القضاء والإفتاء والتدريس منذ القرن الثامن الهجري .

وتضم المكتبة أكبر مجموعة من المخطوطات العربية في فلسطين ، تصل إلى ألفي عنوان تقريباً ، إلى جانب عدة آلاف من الوثائق وغيرها ، اكتُشفت عام ١٩٨٧ بالصدفة تحت السقف القرميدي للمكتبة ، أثناء عمليات الترميم ، وبعضها وثائق رسمية عثمانية وأوراق شخصية .

وقد افتُتحت رسميًا بوصفها مكتبة عمومية عام ١٩٠٠ ، وطُبع لها في العام نفسه فهرس بعنوان « برنامج المكتبة الخالدية العمومية » صنّفه أبو الخير محمد الحبال البيروني مولداً (يلاحظ أن كلمة برنامج استخدمت قديماً بمعنى فهرس ، ومنها برامج الشيوخ مثل برنامج المجاري . . . إلخ) .

وكان عدد المخطوطات آنذاك ٦٨٠ مخطوطاً إلى جانب مئات من الكتب ، ثم ضمت إليها في ما بعد مكتبات آل الخالدي الخاصة في موجات متتالية .

وبعد نكسة ١٩٦٧ ، واحتلال إسرائيل لمدينة القدس ، تعرضت المكتبة لمحاولات متكررة من الإسرائيليين المحتلين للاستيلاء عليها .

وقاد غورين كبير حاخامي الجيش الإسرائيلي سابقاً حملةً ضاريةً للاستيلاء على المكتبة ، واحتل الطابق الأعلى فوقها ، وجلب عدداً من تلاميذ مدرسة ياشيفا التلمودية ، التابعة لحركة يهودية من الغلاة ، تحت شعار إعادة بناء الهيكل في ساحة الحرم القدسي الشريف ، وتصدت له لجنة من عائلة الخالدي عام ١٩٨٢ ، وجمعت هبات من العرب والمسلمين والفلسطينيين وتحركت على محورين :

الأول : اللجوء إلى المحاكم المحلية لدرء أضرار الحاخام .

الثاني : ترميم المكتبة وما تحتويه من كتب .

وبعد فشل الحاخام في الاستيلاء على المكتبة بدأت محاولات بلدية القدس للاستيلاء عليها ، وكذلك بدأت مضايقات الجيش الإسرائيلي والمستوطنين المسلحين ، وتصدت لهذه المحاولات الآنسة هيفاء بنت حيدر كامل الخالدي (ت ١٩٩٣) ، حتى صدر إذن من البلدية بالسماح بترميم المكتبة .

وفي عام ١٩٨٩ سُجلت جمعية أصدقاء المكتبة الخالدية في أميركا ، وانضم إليها بعض كبار المستشرقين في أميركا وأوربا .

وأصدرت جامعة كولومبيا - في نيويورك - دراسة ، كتبها د. رشيد إسماعيل الخالدي، عن محتويات المكتبة الوثائقية حول الهوية الوطنية الفلسطينية في كتاب بالإنجليزية ، صدر عام ١٩٩٧ .

وفي محنتها تلقت المكتبة العون ضد الحاخام غورين وبلدية القدس ، من عالمين يهوديين فاضلين ، هما أمنون كوهين ، ود. داني باهات ، اللذان شهدا أمام المحكمة والبلدية بحقوق المكتبة ، وكذلك وزارة الخارجية الأميركية ، وقنصل أميركا بالقدس .

ومن خلال قصة المكتبة يمكن أن نبرز أوجه الصراع والمقاومة ضد الاحتلال الصهيوني في ما يلي :

- استمرار اهتمام أهل القدس عبر القرون بالعلوم الدينية والتراث الإسلامي.

- إنشاء المؤسسات العلمية بجوار الحرم الشريف ، وإدراكهم لوجوب تثبيت وجودهم من خلال مؤسسات علمية مجاورة للحرم .

- دور الأوقاف الإسلامية .

- القدرة على الصمود ، على الرغم من كل ما تعرضت له بعد تشتت مُعظم أفراد العائلة ، منذ أحداث عامَي ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ المحزنة ، ولم يبق منهم في القدس سوى عدد قليل .

- منذ عام ١٩٦٧ استولت إسرائيل على أوقاف عائلية عديدة ، مما قضى على معظم مصادر الإنفاق على المكتبة .

- كما بدأت منذ عام ١٩٦٧ محاولات الاستيلاء على الطابق العلوي من المكتبة ، ثم اتجهت إلى الطابق الأرضي ، حيث توجد خزائن المكتبة ، واستمر ذلك أكثر من عشر سنوات .

- لجأت أسرة الخالدي إلى المحاكم ، وأسست جمعية أصدقاء المكتبة ، وجمعت التبرعات لرعايتها وترميمها .

- ومن أهم عوامل المقاومة والاستمرار إتمام وضع فهرس جديد بمقتنياتها ، بعد أن كان لها فهرس صدر عام ١٩٠٠ ، وفهرس آخر مخطوط باليد .

- وقد بدأ وضع الفهرس الجديد منذ عام ١٩٨٥ ، وهو الآن على وشك النشر ، وتقوم بنشره مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن ، صنفه د. نظمي الجعبة ، من جامعة بيرزيت الفلسطينية .

- كما بدأ ترميم المخطوطات ، ومنذ عام ١٩٩٥ بدأت أعمال ترميم مبنى كبير من أوقاف العائلة في الجهة المقابلة لمبنى المكتبة ؛ ليصبح ملحقاً توضع فيه الكتب المطبوعة ، ولتبقى المخطوطات في المبنى القديم .

- وتلقت المكتبة معونات من اليونسكو ، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي ، ومن المملكة الهولندية ، إلى جانب معونات أهلية .

- وفي العام (٢٠٠٠) تحل الذكرى المئوية للمكتبة ، وسوف يكون نشر الفهرس الجديد مظهراً من مظاهر الاحتفال بها .

- ويقوم د. وليد الخالدي، المقيم في كمبردج -ماشوسيتس، برئاسة مجلس أمناء جمعية أصدقاء المكتبة . وهو مصدر أي باحث لمعظم المعلومات حول المكتبة .

- وفي قصة هذه المكتبة تتكامل الجهود الخلاقة للعائلة وللفرد ، وتتجلى أصالة التاريخ الضارب بعمق في الأرض .

ومن الجدير بالذكر أن أحد أفراد هذه الأسرة ، وهو يوسف ضياء الدين الخالدي ، أرسل إلى تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية رسالة في مارس ١٨٩٩ ، عَبْر صديق هرتزل ، وهو كبير حاخامي فرنسا (صدوق كاهن) ، يحذره فيها من مجيء اليهود إلى فلسطين ، ورد عليه هرتزل في أربع صفحات بالفرنسية ، يقول فيها : إذا لم يوافق السلطان عبد الحميد على المخطط ، فإن الصهيونية ستتوجه إلى بلد بديل غير فلسطين . وربما كانت هذه الرسالة هي الوحيدة الموجهة من هرتزل إلى شخص عربي .

كما قام محمد روحي بن ياسين الخالدي بعمل أول دراسة ميدانية ، تناول فيها المسألة الصهيونية ، ودوافعها ، وعلاقة اليهود الدينية بفلسطين وبالعرب وبالمسلمين على مر العصور ، وبالمؤسسات الصهيونية واليهودية في فلسطين ، إلى جانب دراسة ميدانية أخرى عن المستعمرات التي تم إنشاؤها ، والأراضي التي اشتراها الصهاينة ، وبائعي هذه الأراضي ، وفشل تدابير الدولة العثمانية في الحد من الهجرة وضبطها ، وإحصائيات مفصلة عن كل مستعمرة ، وهي أول دراسة أكاديمية موثقة بالعربية عن الحركة الصهيونية في هذا القرن ، وقد توفي قبل إنهائها عام ١٩١٣ .

ويعد محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، كما يصفه د. ناصر الدين الأسد .

حكاية مخطوطة عربية :

كان ضمن محتويات مكتبة جامع أحمد باشا الجزار في عكا (الأحمدية) ، مخطوطة ألفها أبو بكر الواسطي في القرن الخامس الهجري وعنوانها : « فضائل البيت المقدّس» . وهي نسخة وحيدة صورتها دار الكتب المصرية عام ١٩٣٢ ،

وأعادتها إلى المكتبة ، وهذه المخطوطة تدخل ضمن كتب فضائل البلدان والمدن ، ومثل هذه الكتب حافلة بالمبالغات المفرطة التي تقبّلها العقل في عصور معينة ، ولحق بهذا النوع من المؤلفات حول فضائل بيت المقدس كثير من الإسرائيليات ، والأقاصيص الشعبية الزائفة ، والأحاديث المكذوبة المنسوبة زوراً إلى الرسول الكريم .

واحتجّ ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) على هذه الخرافات ، وكفَّر من يتجاوز في تقديس هذه المدينة .

وفي عام ١٩٤٨ احتلت إسرائيل مدينة عكا واستولت على كنوزها .

وفي عام ١٩٦٩ ، قام بتحقيق هذه المخطوطة باحث إسرائيلي هو إسحاق حسّون ؛ لينال بها درجة الماجستير من الجامعة العبرية ، ثم صدرت مطبوعة عام ١٩٧٩ .

وتعقَّب هذا التحقيق عصام الشنْطي بالنقد والتمحيص في دراسة وافية نُشرت بمجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٢٦ ، جـ١ ، ٢ يناير - يوليو ١٩٩٢).

فماذا حدث لهذه المخطوطة ؟

- نُقلت (أي سُرقت) من مكانها في عكا إلى الجامعة العبرية .

- وحُققت لأغراض غير موضوعية وغير أكاديمية ، فكتاب الواسطي لا يتوفر فيه نضج التأليف أو التصنيف ، ويتسم بعدم تبويب مادة الكتاب . وقد تأثر الواسطي بابن قتيبة في (عيون الأخبار) ، الذي نقل عن الإسرائيليات أن « الشجر كان يكلم سليمان في محرابه » !

كما أورد بعض المؤلفين العرب خرافات كثيرة عن بيت المقدس ، منقولة عن الإسرائيليات ، وخصوصاً في ما يتعلق بما قبل الإسلام .

وتأثر الواسطي بالإسرائيليات وعمل القُصاص ، وأورد أحاديث مكذوبة من أحاديث فضائل الأعمال والمستحبات ، مما تساهل فيه رجال الحديث ؛ للترغيب والوعظ ، مع زيادة أشياء ينكرها العقل .

والإسرائيليات - كما هو معلوم - روايات مشحونة بالأساطير ، دخلت الإسلام من مصادر يهودية من التوراة والتلمود ، بالإضافة إلى أخبار ابن لقمان ، وأشهر من رواها كعب الأحبار ، وكان من يهود اليمن ، أسلم في زمن أبي بكر . ووهب بن منبه ، أبو الإسرائيليات ، الذي دَس أخباراً ممزوجة بالأساطير ، وصحب إبن عباس ولازمه ثلاثة عشر عامًا ، وقد خلط الإسرائيليات بالحديث المكذوب والتفاسير .

وينقل الواسطي عن التوراة أشياء منسوبة إلى الحديث النبوي ، مثل :

« بيت المقدس طست من ذهب مملوء عقارب » !!

والواسطي ينقل عن الإسرائيليات ما يُطرب الأذن الصهيونية مثل شراء أرض الهيكل وبنائه على يد داود وسليمان ، وعصا موسى ورؤيته الأرض المقدسة من مكان بعيد ، وأنه لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس ، أنبت الله شجرتين عند باب الرحمة ، إحداهما تُنبت الذهب ، والأخرى تنبت الفضة ، فكان كل يوم ينتزع من كل واحدة مئتي رطل ذهباً وفضةً ، ففرش المسجد بلاطة ذهباً وبلاطة فضةً !!

كما نقل الواسطي - مما كان ذائعاً لدى الناس في أيامه - قصصاً تعتمد على الأساطير والخرافات القديمة والخيال والغرائب والعجائب ، وكان القصد منها الوعظ والتسلية ، وكثير منها مستمد من الإسرائيليات ، وشجع على ذلك اعتراف الإسلام بجميع الأنبياء .

وبإبراز مثل هذه النصوص الهزيلة المرفوضة دينيًا ومنطقيًا ، يحدث تمجيد لتاريخ أبطال اليهود ، اعتماداً على إسرائيليات لا أساس علميًا لها .

وهكذا درس المحقق الإسرائيلي مادة الكتاب ، وهو غير خال من هوى في نفسه ، مما أبعده عن المنهج العلمي في كثير من الأحيان ، وهو يتلاعبَ بنيّة المؤلف ، ويُغفل المكانة الدينية لبيت المقدس عند المسلمين حينما يدعي أن الهدف من تأليف الواسطي لكتابه يرجع إلى أسباب عارضة ، مثل جمع الأموال لإعادة بناء المسجد ، وترميمه على إثر وقوع قبة الصخرة عام ٤٠٧هـ ، ويقوم بتضخيم هذه الأسباب العارضة ، حتى يُغفل العنصر الديني ، ومكانة المدينة الدينية لدى المسلمين ، وتميزها عندهم على نحو ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح .

ويوغل المحقق في ذلك بأن يعزو مكانة بيت المقدس في عهد الأيوبيين إلى أسباب قبلية ، معتمداً على أوهى الروايات وأضعف الأخبار ، كما يزعم أنها لم تَلْقَ العناية في عصر العباسيين لأسباب سياسية أيضاً ، وينسب إلى بني العباس أنهم نقلوا أشياء تُعدُّ رموزاً دينية من قبة الصخرة إلى الكعبة ، ويعتمد في ذلك على روايات متهافتة ، ينقلها لأمر ما في نفسه .

هذا إلى جانب أخطاء منهجية في التحقيق ، تعود لعدم إتقان المحقق لأصول هذا العلم .

بعض مظاهر الصحوة :

حتى عام ١٩٤٨ كان التعريف بالمخطوطات في فلسطين نادراً . وفي أوائل الثمانينيات من القرن العشرين نشط الفلسطينيون للعناية بتراثهم ، بعد أن انشغلوا بالسياسة طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات .

وقد ساعدهم على الاهتمام بالمخطوطات من أوائل الثمانينيات بعض الجامعات الفلسطينية ، مثل جامعة النجاح الوطنية في نابلس ، وجامعة القدس العربية في قرية أبو ديس ، على أطراف القدس الشرقية القديمة ، وكانت تنفق عليها الكويت منذ نشأتها حتى فترة متأخرة .

وأسهم مجمع اللغة العربية الأردني ، والجامعة الأردنية ، ومؤسسة آل البيت في عمّان ، ثم مؤسسة الفرقان في لندن ، في نشر فهارس للمخطوطات في فلسطين .

وامتد النشاط إلى الفلسطينيين داخل إسرائيل ، وبدأوا يفهرسون مكتبتيْ يافا ، وعكا (الأحمدية) .

وبعد أوسلو وفي عهد السلطة الفلسطينية أُنشئت وزارة للثقافة في رام الله ، وبها إدارة عامة منبثقة عن الوزارة للمكتبات والمخطوطات ، وهي التي تتابع الآن أعمال حصر المكتبات الفلسطينية ، وتزويدها بالأدوات والإمكانيات ، وتصوير المخطوطات ونقل المصورات خارج القدس .

كما أُنشئت في بيت المقدس عام ١٩٨٣ مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية ؛ لحماية المخطوطات مما تعرضت له من خطر الحروب والنهب .

ويقدر تقرير هذه المؤسسة أن مخطوطات فلسطين كانت نحو خمسين ألف مخطوطة أصلية ، لم يبق منها الآن إلا نحو ثمانية آلاف !

وقد جَمَعَتْ مؤسسة بيت المقدس ستمائة مخطوطةأصلية ، ونحو ٣٥٠٠ مخطوطة مصورة . ونصف هذه المخطوطات مصاب بالأرضة وبالرطوبة ، لسوء حفظها ، وتحتاج إلى فهرسة .

ولعل من أهم علامات الصحوة حصر مجموعات المخطوطات في فلسطين ، وقد أصدرت الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات بوزارة الثقافة بالسلطة الفلسطينية في يونيه ٢٠٠٠ ، أصدرت دليلاً لمكتبات المخطوطات ومراكزها في فلسطين ، حصرت فيه اثنتين وعشرين مكتبة ، وقد أعدته الإدارة ؛ استجابةً لطلب أ. عصام الشَّنْطي ، وقد استعنتُ بمصادر أخرى للتدقيق في هذا الحصر ، فوصل العدد إلى ٢٧ مكتبة ، منها اثنتان توجدان في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، وهما

المكتبة الأحمدية في عكا ، والإسلامية في يافا . وكان أهم مصدر هو قائمة بفهارس المخطوطات ، صادرة عن مؤسسة آل البيت بالأردن .

وفي ما يلي قائمة بما أمكن حصره من هذه المكتبات :

مكتبات المخطوطات في فلسطين (التي أمكن حصرها)

مكتبات في مناطق تحت يد السلطة الفلسطينية :

في القدس (المدينة القديمة) الشرقية :

١ - المكتبة الخالدية (لها فهارس مطبوعة ، وفهرس حديث قد الطبع الآن (عام ٢٠٠٠) .

٢ - دار إسعاف النشاشيبي (في القدس الشرقية ، ولكن خارج السور) .

٣ - مكتبة الخطيب .

٤ - المكتبة البديرية (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٧) .

٥ - مكتبة المسجد الأقصى (لها فهرس مطبوع من ثلاثة أجزاء) .

٦ - مكتبة الأنصاري .

٧ - مكتبة جامعة القدس (صدر فهرس لمكتبة الدعوة وأصول الدين ، بجامعة القدس) .

٨ - مكتبة مؤسسة إحياء التراث (تابعة للسلطة الفلسطينية) ، وهي مصورات، وقليل من الأصول .

٩ - مكتبة إسحاق موسى الحسيني (لها فهرس بخط اليد ١٩٧٥) .

١٠ - مكتبة جمعية الدراسات العربية .

في نابلس :

١١ - مكتبة نمر النابلسي (لها فهرس مطبوع ١٩٨٣) .

١٢ - مكتبة مركز التوثيق والمخطوطات (في جامعة النجاح) .

١٣ - مكتبة آل تفاحة (لها فهرس) . ولها مصورات في جامعة النجاح .

١٤ - مكتبة آل الجوهري (أو المكتبة الجوهرية) ، (لها فهرس مطبوع عام١٩٩٠) .

١٥ - مكتبة آل القمحاوي(لها فهرس مطبوع عام ١٩٩٢) .

١٦ - مكتبة آل الصمادي (لها فهرس) .

١٧ - مكتبة بلدية نابلس العامة .

١٨ - مكتبة آل صوفان .

في الخليل :

١٩ - مكتبة الحرم الإبراهيمي (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٣) .

٢٠ - مكتبة جامعة الخليل .

في غـــزة :

٢١ - مكتبة الجامع العمري .

٢٢ - مكتبة الجامعة الإسلامية .

في جنـين :

٢٣ - مكتبة أوقاف جنين في قرية (بُرقين) : مسجدان بهما **مخطوطات .**

٢٤ - مكتبة آل جـرار .

في البيرة (ملاصقة في رام الله) :

٢٥ - مكتبة الأرشيف الصحفي والوثائق (إنعاش الأسرة) **(توجد بها** مصورات مخطوطات فقط) .

في فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ :

٢٦ - المكتبة الأحمدية في عكا (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٣) .

٢٧ - المكتبة الإسلامية في يافا (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٤) .
٢٨ - حيفا : فيها بعض المكتبات الخاصة (لم نعرف عنها شيئًا) .
٢٩ - النّاصرة (أديرة) .

ومن تحليل هذا الحصر نخرج بما يلي :

١ - إجمالي ما أمكن حصره من مكتبات المخطوطات في فلسطين يبلغ ٢٧ مكتبة ، منها اثنتان في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ .

٢ - معظم هذه المكتبات عائلي ، وعددها ١٣ مكتبة ، أي بنسبة (٤٨٪) .

٣ - بلغ عدد مكتبات المساجد خَمْسًا ، وتشمل مكتبة المسجد الأقصى ، واثنتين في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، هما الأحمدية في عكا ، والإسلامية في يافا ، وتبلغ نسبة مكتبات المساجد (١٨,٥٪) .

٤ - عدد مكتبات الجامعات أربع مكتبات ، بنسبة (١٥٪) .

٥ - عدد مكتبات المؤسسات والمراكز البحثية ثلاث مكتبات ، بنسبة (١١٪) .

٦ - عدد مكتبات البلديات والأوقاف مكتبتان ، بنسبة (٧,٥٪) .

ومن الدليل الذي أعدته الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات بالسلطة الوطنية الفلسطينية ، يتضح أن أكبر هذه المكتبات من حيث عدد المخطوطات يحتوي على ألفي عنوان تقريبًا ، وأن بقية المكتبات يحتوي على مئات العناوين ، وبعضها الآخر يحتوي على أقل من مئة ، ومن أمثلة ذلك :

١ - المكتبة الخالدية ، وبها نحو ٢٠٠٠ عنوان (ويدخل فيها محتويات المجاميع) .

٢ - مكتبة المسجد الأقصى ، وبها نحو ١٦٠٠ عنوان (ويدخل فيها محتويات المجاميع) .

٣ - مكتبة دار إسعاف النشاشيبي ، وبها نحو ١٢٣٨ عنوانًا (ويدخل فيها محتويات المجاميع) .

أما المجموع النهائي لعناوين المخطوطات شاملاً العناوين داخل المجاميع التي يحتوي المجموع منها على أكثر من عنوان ، وبعضها رسائل صغيرة - فيصل حسب تقديري إلى نحو ٩ آلاف عنوان .

ومن بين هذه المكتبات نحو ١٣ مكتبة تمت فهرستها ، ونُشر منها حقًا ١٢ فهرساً ، أحدها في ثلاثة أجزاء (مكتبة الأقصى) ، وثمة فهرس لا يزال مخطوطًا ، وهو فهرس مكتبة إسحاق موسى الحسيني في القدس (على حد علمي) .

وهناك بعض مظاهر الثراء في جهود الفهرسة ، نرصدها في ما يلي :

١ - المكتبة الخالدية في القدس :

(أ) صدر لها فهرس عام ١٩٠٠ ، عندما أُعلنت مكتبة عمومية ، عنوانه «برنامج المكتبة الخالدية في القدس . القدس : مكتبة جورجي حبيب حنانيا» .

(ب) فهرس المكتبة الخالدية في القدس ، حسب عام ١٩٦٧ ، مخطوط ، يشمل الكتب المخطوطة والمطبوعة .

(جـ) فهرس المكتبة الخالدية في القدس ، تحت الطبع في مؤسسة الفرقان - في لندن .

٢ - مكتبة المسجد الأقصى في القدس :

« فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى » : وجاء في ثلاثة مجلدات (حتى الآن) ، وكلها من إعداد خضر إبراهيم سلامة ، كما يلي :

(أ) الجزء الأول : صدر في القدس : دائرة الأوقاف العامة ، في طبعتيه : الأولى (١٩٨٠) ، والثانية (١٩٨٣) .

(ب) الجزء الثاني : عمّان (الأردن) : مؤسسة آل البيت ، ١٩٨٣ .

(جـ) الجزء الثالث : لندن : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ١٩٩٦ .

ويلاحظ أن إنشاء الفهارس يمتد تاريخيًا إلى الوراء ، إلى بداية القرن العشرين ، عام ١٩٠٠ ، تاريخ ظهور أقدم فهرس ، وهو : برنامج المكتبة الخالدية في القدس .

أما أحدث عمل أمكن الاطلاع عليه ، فيعود إلى عام ١٩٩٦ ، وهو تاريخ نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى ، بمعرفة مؤسسة الفرقان في لندن ، وربما يصدر في عام ٢٠٠٠ الفهرس الجديد الموسع للمكتبة الخالدية ، بمعرفة الفرقان (لندن) أيضاً .

وإذا استثنينا فهرس الخالدية الأول عام ١٩٠٠ ، فإننا نلاحظ أن الفهارس إنما صدرت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين ، أي في حدود عشرين عاماً .

وقد حظيت بعض هذه المجموعات بدراسات وصفية ، وببليوجرافية ، بلغ عددها خمسًا ، تناول بعضها مخطوطات في موضوع معين ، مثل :

١ - مخطوطات فضائل بيت المقدس : دراسة وببليوجرافيا / تأليف د. كامل جميل العسلي . عمّان ، مجمع اللغة العربية الأردني ، ١٩٨١ .

٢ - فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة / د. محمود إبراهيم - الكويت ، معهد المخطوطات العربية ، ١٩٨٥ .

وهناك بعض الدراسات الببليوجرافية التي تناولت مخطوطات فلسطين مع الاتجاه الانتقائي لجانب أو لآخر ، ويعود أقدمها إلى عام ١٩٢٤ ، وهي كما يلي حسب التسلسل التاريخي :

١ - خزائن الكتب العربية : وصف بعض المخطوطات في خزانة بيت الجوهري، في مدينة نابلس ، والكتب موقوفة ، ووصف كتاب في خزانة آل صوفان في نابلس/ محمد عزّة دروزة ، مجلة المجمع العلمي العربي - مج ٤ ، ١٩٢٤ .

٢ - مجموع نادر : مقالة بقلم عبد الله مخلص . مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، مج ١٠ ، ١٩٣٠ .

٣ - دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها / محمد أسعد طلس . مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، مج ٢٠ ، ١٩٤٥ ، مج ٢١ ، ١٩٤٦ .

٤ - المخطوطات العربية في فلسطين : أبحاث جمعها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد . بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٨٢ .

وهناك دراسة حديثة تناولت مخطوطات فلسطين بشكل عام مع بعض التحليلات الإحصائية ، وهي :

٥ - مخطوطات فلسطين ، واقع وطموح : بيت المقدس / فؤاد عبيد - القدس ، منشورات مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني ، ٢٠٠٠ .

ويلاحظ أن هذه أول دراسة تصدرها مؤسسة تابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية ، وهي بادرة طيبة تدل على اهتمام ووعي بأهمية هذه المخطوطات على المستوى الرسمي .

مظاهر الدفاع الفلسطيني عن المخطوطات :

ويمكن بشكل عام تسجيل بعض الملاحظات بشأن مظاهر الدفاع الفلسطيني عن المخطوطات :

١ - تمسُّك بعض العائلات بما لديها من مخطوطات ، وهي من قبيل الوقف العائلي ، ولقد قامت بعض العائلات والأسر والبيوتات في مختلف المدن الفلسطينية بدور هام في حماية المخطوطات ، في غياب الدولة الفلسطينية بعد نكبة ١٩٤٨ ، ولعشرات السنين في ما بعد .

وكان الحفاظ على هذه المكتبات في القدس ونابلس والخليل وغزة وجنين وعكا ويافا وغيرها ، خطَّ دفاع ضد محاولات التصفية والتذويب والتزوير ، وحصناً لحفظ الذاكرة التاريخية الوطنية لهذا الشعب .

٢ - أدركت بعض هذه العائلات دورها في امتلاك جسد المخطوطات ، في حين أتاحت محتواها للباحثين ، ومن أمثلة ذلك المكتبة الخالدية (العمومية) ، منذ عام ١٩٠٠ .

٣ - تعد الفهرسة نوعاً من التوثيق يدعم حقوق مالكي المخطوطات ، والفهرس إيصال حضاري بهذه المخطوطات في ذمة العالم .

وكل مخطوطة تُفهرس هي حجر في بنيان الذاكرة التراثية للأمة ، كما أن كل دراسة علمية لهذه المخطوطات هي تأكيد لوعينا بأنفسنا ، وتفوقنا على التخلف والغيبوبة .

ويمكن القول : إن عدد المكتبات التي تمت فهرستها - وهي ١٣ مكتبة من بين ٢٧ مكتبة للمخطوطات - نسبة جيدة في ظروف صعبة ، كالتي مرت ولا تزال تمر بها مدن فلسطين وشعبها .

٤ - ولكن نسبة ما تبقى من المخطوطات، وتبلغ نحو ثمانية آلاف مخطوطة، إلى ما قُدر أنه كان موجوداً بفلسطين قبل الاحتلال، وهو نحو خمسين ألفاً ، يشير إلى كارثة حقيقية ، فما تبقى يمثل ١٦٪ فقط من مخطوطات فلسطين .

وعلى الرغم من جهود العائلات في الحفاظ على مخطوطاتها ، فإن مؤسسات كثيرة كالمساجد وغيرها ، وجزءاً من ممتلكات العائلات نفسها ، يعد مفقوداً ، في حين تمتلك الجامعة العبرية نحو خمسة آلاف مخطوطة ، منها نحو خمس مئة مخطوطة نادرة ، وهذا هو ما نعلمه . أما الباقي ، فهو في حاجة إلى دراسة وبحث .

٥ - تم تصوير كثير من المجموعات في مكتبات المخطوطات ، وأُودعت في مؤسسات وجامعات عديدة في فلسطين .

والتصوير حماية للمخطوطات من التلف والفناء ، وإخراج لها من العزلة والندرة .

٦ - تم لمّ شتات بعض المخطوطات ، وتجميعها في مكان واحد ، كما جرى ترميم لبعضها ، وترميم لواحدة من أهم مكتبات المخطوطات ، وهي الخالدية .

٧ - قام مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني بإجراء دراسات ومسوحات خلال الأعوام الماضية - بعد قيام السلطة الفلسطينية - شملت تسع مكتبات فقط في مدينة القدس ، وهي :

مكتبة دار النشاشيبي ، مكتبة مؤسسة إحياء التراث ، مكتبة الأنصاري ، مكتبة الخطيب ، مكتبة جمعية الدراسات العربية ، مكتبة المسجد الأقصى ، مكتبة جامعة القدس ، المكتبة الخالدية ، مكتبة البديري .

واستُهلت هذه الدراسات بدراسة نُشرت حديثاً ، وتؤكد هذه الدراسات ما أصاب المخطوطات من تلف ، وحاجة المكتبات إلى دعم مادي وفني وعلمي ، وتوصي بجمع مخطوطات القدس في مكان واحد مجهز ليُعتنى بها .

أبطال في المعركة :

على الرغم من ضخامة الخسارة بل الكارثة التي حدثت لمخطوطات فلسطين ، وبقاء ١٦٪ فقط ، مما كان موجوداً بها قبل الدمار الذي أحدثه مجيء الصهيونية ونشاطها التدميري الإرهابي ، لإبادة الإنسان الفلسطيني وثقافته ، وتاريخه وسجلاته الفكرية ، وتضخم ما تقتنيه المؤسسات الإسرائيلية ، وخصوصاً الجامعة العبرية من مخطوطات ، على الرغم من كل ذلك ، فإن ما بقي من مخطوطات قد لقي - نسبيًا - قدراً من الاهتمام ، ابتداءً من أوائل الثمانينيات ، بعد أن بدأ الوعي العربي والفلسطيني بأهمية الحفاظ على المخطوطات ، وكان في الساحة بعض الأفراد والمؤسسات ، وهذه بعض الجهود في هذا المجال ومَن قاموا بها ، في حدود ما أسعفتني به المراجع والمصادر .

١- دور بعض المؤسسات والعائلات :

(أ) مجمع اللغة العربية الأردني :

قام المجمع بدور كبير في لمّ شتات التراث الفلسطيني المتناثر ، عن طريق تصويره وفهرسته ، ونشر هذه الفهارس .

وتبنى منذ عام ١٩٨٢ طباعة فهارس المخطوطات العربية التي قام بتصويرها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، وبشكل خاص المخطوطات الموجودة في مدن فلسطين ، من المكتبات والمساجد والمتاحف .

(ب) الجامعة الأردنية :

أسهم مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية في تصوير عدد كبير من المخطوطات ، من المكتبات العائلية والمساجد والمتاحف ، وقام بتكليف عدد من المفهرسين بفهرستها ، وبذلك يكون قد أسهم في تصوير بعض المخطوطات وفهرستها ، وكانت هذه الجهود في عدد من المدن الفلسطينية ، وشمل التصوير أيضاً مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا ، التي أنشأها أحمد باشا الجزار (١٧٢٠-١٨٠٤) ، وهي الآن في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ .

(جـ) مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن - ويمبلدون :

أسهمت المؤسسة في خدمة مخطوطات فلسطين بعملين هما :

- نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى ، وكان الجزآن : الأول، والثاني قد نُشرا من قبل .

- تبني نشر فهرس المكتبة الخالدية ، وهو يشمل مخطوطات هذه المكتبة التي يبلغ عددها ألفي مخطوطة تقريباً ، أي ما يقرب من رُبع المخطوطات الباقية في فلسطين كلها ، حسب التقديرات الحالية . وسوف يُنشر هذا الفهرس قريباً ، ويمكن أن يقع في مجلدين أو ثلاثة .

(د) عائلة الخالدي ، سبق الحديث عن الصراع الطويل الذي خاضه بعض أفرادها ضد محاولات الاستيلاء على مبنى المكتبة القريب من حائط البراق ، وهو الموقع الذي تتركز فيه أطماع الصهيونية ؛ سعيًا لتحقيق فكرة الهيكل الذي تحلم ببنائه ، بعد تدمير كل ما يقع في هذا المكان .

إن تضحية هذه العائلة بممتلكاتها وأموالها وجهود أبنائها للحفاظ على مجموعات المكتبة عمل يستحق كل التقدير والتسجيل في صفحات التاريخ، وقد نشرتْ مشكورة أقدم فهرس للمخطوطات في فلسطين عام ١٩٠٠ ، عندما جعلت المكتبة مكتبة عمومية .

(هـ) المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، مؤسسة آل البيت - عمّان .

أسهم المجمع في نشر الجزء الثاني من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس .

(و) إدارة الأوقاف العامة - مكتبة المسجد الأقصى :

نشرت ثلاثة فهارس للمخطوطات ، هي :

- الجزء الأول من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس (١٩٨٣) .

- فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ محمد بن حبيش) في القدس (١٩٨٧) .

- فهرست المخطوطات العربية المصورة - النحو والصرف / إعداد حمد أحمد عبد الله يوسف (١٩٨٦) .

(ز) جامعة النجاح الوطنية - مركز التوثيق والمخطوطات والنشر (نابلس) .

أصدرت :

- فهرس مخطوطات المكتبة الجوهرية في نابلس (١٩٩٠) .

٢ - دور بعض الأفراد :

للفهرسة وظائف علمية واتصالية وتوثيقية هامة ، ولكن من الطريف أن يقوم المفهرسون بالعمل في المقاومة أحياناً ، وهذا ما فعله مفهرسو مخطوطات فلسطين ، الذين قاموا ويقومون بأدوار تاريخية مستمرة في فهرسة مجموعات المخطوطات ، حتى في المدن المحتلة عام ١٩٤٨ ، ومن هؤلاء :

- محمود علي عطا الله ، قام بإعداد نحو ستة فهارس ، لمكتبات في فلسطين (١٩٤٨) ، وفلسطين السلطة الفلسطينية .

- خضر إبراهيم سلامة ، قام بإعداد فهرسين ، أولهما من أجزاء ثلاثة لمخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس ، والثاني لمخطوطات المكتبة البُديرية في القدس ، بتكليف من مركز الوثائق بالجامعة الأردنية .

- د. أحمد العلمي ، قام بإعداد فهرس مكتبة الدعوة وأصول الدين في جامعة القدس .

- ومن عائلة الخالدي يمكن أن نذكر الأدوار التي قام بها د. وليد الخالدي في الصراع مع السلطة الفلسطينية ، كما ورد سابقاً في قصة المكتبة الخالدية ، والسيد حيدر الخالدي ، وابنته هيفاء ، وابن عمه حازم الخالدي ، وغيرهم من أبناء العائلة .

- وليس من الغريب أن نذكر بالفضل عالمين يهوديين ، وقفا إلى جانب المكتبة الخالدية في صراعها من أجل البقاء ، وأدليا بشهادتيهما لصالحها أمام المحكمة الإسرائيلية ، وهما : د. أمنون كوهين ، د. داني باهات .

ونحن من موقع العمل الأكاديمي لا نغفل فضلاً لصاحبه ، وقد ذكر صنيعهما د. وليد الخالدي في تأريخه للمكتبة الخالدية .

حقوق لا تضيع :

دأب الاستعمار على نهب ثروات الشعوب ومواردها وأموالها وعَرَق أبنائها ، وسرقوا البشر وساقوهم عبيداً لبناء دولتهم .

وامتدت الأيدي الغاصبة ، فنهبت آثار الأمم المستَعْمَرة في غفلة منها ، ومنها الآثار الحجرية ، والبردية ، والحلي ، والحفريات الجيولوجية ، والمخطوطات ، بل سرقوا آلهة القبائل البدائية البسيطة .

وعلى الرغم مما في هذا النهب من فائدة للمسروقات التي ترقد في سلام ورعاية في متاحف الغرب ومكتباته ، فإن هذه السرقة لم يقابلها مكافأة لهذه الشعوب نظير خسارتها الفادحة .

وقد نُهبتْ مخطوطات فلسطين في إطار هذه الفلسفة الاستعمارية ، التي تَعُدُّ شعوب المستعمرات « عينات » للدراسة ، مثل القردة والفئران في غالب الأحوال . وشعوب المنطقة العربية شعوب معلِّمة للإنسانية ، وليست قبائل عرايا ، تدق الطبول في الغابة ، مع احترامنا لكل أنواع المجتمعات .

وثقافة العرب أنفسهم أسبق من ثقافة العبريين واليونان ، بل هي متصلة بحضارات قديمة في المنطقة ، في مصر وبابل وآشور ، في اللغة والفن والفكر والوجدان ، بل في أصول العقيدة والإيمان بالخالق وتوحيده وبالحساب في اليوم الآخر ، ولذلك فُرضت على شعوب العرب - وشعب فلسطين منها - معركة ثقافية طويلة المدى .

وهذه المعركة ليست جولة حماسية من الهجوم الشجاع ، وتقديم الشهداء من أعز الأبناء ، وانتظار عطف العالم وتحرّك ضمائره وعواطفه ، وليس سرًا أن الفلسطينيين بشر ، لهم مشاعر ويحزنون وتحترق قلوبهم على أبنائهم ، مثل الآباء من الأميركان والإنجليز واليهود أيضًا ، وكما رخصت في أعين العالم دماء الشهداء جاز لهم نهب تراثنا ، وإنما هذه الجولة معركة وجود حضاري ، فرضها المستعمر في كل مراحله حتى المرحلة الصهيونية ، وجعلها معركة تفاضلية ، تتصارع فيها الثقافات بدلاً من أن تتكامل ، وهو المفروض نظرياً بين الثقافات والحضارات . فقد

سحب منها المستعمر وخصوصاً الصهيوني عناصر المحبة والتسامح ، وفرض معادلات وكيماويات البغضاء والتحقير والمفاضلة ، وهي معركة ليست في صالحه بأي حال من الأحوال ، وأسلحتنا فيها أقوى من أسلحته ، وهي لا تُستورد من أميركا أو غيرها ، بل هي صناعة محلية معتقة عبر آلاف السنين .

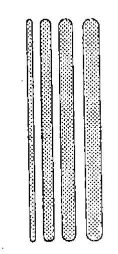
وسوف تظل حقوق المستعمرات - ومن بينها فلسطين - في تراثها الثقافي المنهوب قائمة ، مثلما تظل حقوقها المادية والمالية ودماء شهدائها من الجنود والأهالي والعلماء الشهداء ، ومثلما تظل حقوقها في القرون والعقود بل الساعات التي ضاعت عليها ، فتخلفت وفقدت مواردها في الدفاع عن وجودها .

ولذلك فإن هذه الحقوق والكنوز والمخطوطات والآثار الضائعة تحتاج إلى جهود مستمرة ، ومؤسسات قانونية وثقافية وأكاديمية وشعبية إلى جانب الحكومية . يتم إنشاؤها للاستمرار في المطالبة بهذه الحقوق والتفتيش عنها تاريخيًا وببليوجرافيًا ، في عمل قد يستمر قروناً من الزمان ، ويُربَّى لأجلها أجيال من الشباب الفاهم المقتدر علميًا وذهنيًا وأخلاقيًا ، على خوض المعارك الثقافية الطويلة ، والدفاع عن حقوق أوطانهم في كنوزها المنهوبة .

وإذا كان بعض المفكرين يَرَوْنَ أن الحل في حصول أصحاب الحق المنهوب على صور من هذه المخطوطات المسروقة ، فإنني أقول بعكس ذلك ، فالأصول من حق أصحابها ، ولمن اغتصب هذه الكنوز أن يحتفظ بصورها .

ولكن يسبق ذلك أن يتخلص صاحب الحق من تخلفه وجهله ، وأن يحترم تاريخه وعلماءه ؛ ليحترمه العالم ، ويصدِّق دعاواه ومطالبته بحقوقه ، ويصدِّق أيضًا أن لتراثه مكاناً في بلده الأصلي لحفظه ورعايته ، ثم دراسته والإفادة منه علميًا ، وأدبيًا وأخلاقيًا وجماليًا .

* * *



تعقيبات ومداخلات

■ د. أحمد صدقي الدجاني :

أعرب - بداية - عن سعادتي بالمشاركة في هذه الندوة ، وأستلهم اللحظة التاريخية التي نعيشها ، وقد عبر عنها أخي د. أحمد في كلمة الافتتاح ، كما أستلهم المعاني الفكرية التي جاءت في كلمة د. فيصل .

أستحضر معكم ثلاثة مفاهيم ، هي السياسة ، والتراث ، والمخطوط ؛ لأشير إلى لون أساسي من ألوان التفاعل الحضاري ، وهو الصراع الحضاري ، والحق أن سنن التفاعل كثيرة ، ومن بينها أن الأمة حين تريد أن تقدم إسهاماً فكرياً حضارياً ، فإنها تلتفت إلى تراثها، وتتفاعل معه ، وهذه الظاهرة من أهم الظواهر في نهضة أمتنا في القرنين المتأخرين .

والنقطة التي أريد أن أضيفها هي استذكار الهجمة الغربية الفكرية التي تعاملت مع هذا التراث . إننا نلاحظ الاهتمام بكتب الرحالة الغربيين ، فكتاب الكونت هولمي - مثلاً - في رحلته لاقى اهتماماً زائدًا . وعبد اللطيف الترباوي في كتابه القيم « القدس الشريف في تاريخ العروبة والإسلام » يمحص ما جاء في كتاب هولمي ويفنده ، فهو يتحدث عن القدس فيرى أنها مدينة مهملة إلى غير ذلك ، ويغفل أن ما كان في القدس في العصر العثماني ما هو إلا امتداد لما سبق العصر العثماني من عصور .

أشير إشارة عاجلة إلى تأسيس رابطة فلسطين في بريطانيا عام ١٨٠٤ ، وقد استهدفت هذه الرابطة البحث في جغرافيا فلسطين تهيئة للمشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني ، وقد كتبت عن هذه الرابطة د. خيرية قاسمية .

ولا أنسى صندوق اكتشاف فلسطين الذي تأسس عام ١٨٦٥ ، وكان له من اليوم الأول ٤٦ فرعاً في بريطانيا والولايات المتحدة . وكان هَمّ هذا الصندوق هو التمويل بالمال لإخضاع كل تراث فلسطين لبرنامج معد مسبقاً ، ولجدول أعمال وضعه الصندوق ، وذلك يؤكد المعاني التي أشار إليها د. كمال .

نحن في هذه الندوة أمام مشروع لعمل متكامل يتجاوز جوانب كثيرة ، هناك كتب ومخطوطات قديمة وحديثة ، فكيف يمكن الحفاظ عليها في مكان أمين ؟ هناك وثائق وأوراق وتقارير صدرت ، وتهمنا كثيراً . وأضرب مثلاً على ذلك من الموضوعات التي لم تنشر بعد - كما ينبغي - على الصعيد الدولي ، وهذا الموضوع هو ضريح النبي داود عليه السلام ، هذا الضريح الذي كان وقفاً إسلاميًا شَرُفت العائلة التي أنتمي إليها بخدمته منذ عام ١٥٥١ إلى عام ١٩٤٨ ، والأمر مطروح على صعيد محلي بين العائلة ومالها من الوقف - وهو إسلامي - وبين هذا العدو المغتصب . وهناك تقرير كُتب منذ عام ١٩٥١ لنائب القنصل الأميركي « فولر » ، وهو موجود كاملاً ، ويحتوي على دراسة متكاملة تثبت - تاريخياً - الحق الكامل لنا في هذا الضريح .

إلى أي مدى يمكن أن نحصل على هذه التقارير ونعتني بها ، ونعمل على تعميمها ؟

إن مكتبات العائلات التي حدثنا عنها د. كمال تدفعني إلى نقطة أخرى ، وهي أن أكثر ما في مكتبات العائلات قد فُقد ، ونسأل : أين ذهبت؟ أغلب الظن أن العدو نهبها ، ووضعها في مكتباته ، تُرى ألا ينبغي أن نلاحقها ؟ إن معنا خبيراً هاهنا ، وهو د. عدنان البخيت ، نتطلع إلى أن نسمع منه .

لديّ واقعتان يحسن ذكرهما في هذا المقام ، لقد كنت في الثانية عشرة حين تركت فلسطين ، وما زلت أذكر بيتنا ، وأذكر الغرفة الواسعة الكبيرة التي كانت تسكنها جدتي ، وأذكر جيداً أنها كانت تشير إلى دولابين كبيرين ، أسألها عنهما

فتقول لي : هذه هي كتب أجدادك . إنني أقدر الآن أن الدولابين كانا يضمان مئات الكتب ، منها ما هو مخطوط . والأمر نفسه حدث لزوجتي في بيت جدّها المفتي الذي كان مسؤولاً - على مدى أربعين عامًا - عن وثائق الإفتاء التي ورثت عبر أجداده . ترى أين هي الآن ؟

لقد أهداني أخي د. البخيت نسخة من مخطوط يضم سبع مئة صفحة تقريبًا ، وُجد في جامع يافا ، ونسعى نحن الآن إلى تحقيقه ، ويشمل الفترة من أول القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري إلى وقت قريب . ترى أين نجد هذه الكتب ؟ وكيف نحصل عليها ؟

نقطة أخرى أوجزها فأقول : بعد أن نحصل على هذا كله كيف نحفظه ؟ لقد تحدث د. كمال عن الخطر الداهم بدءاً من الحشرات ، ووصولاً إلى الهجمة الصهيونية ، ويقابل ذلك وعي متزايد في حفظ مكتبات التراث ، أذكر هنا زيارة إلى مكتبة قم ، وكيف جُهزت التجهيز المتميز بما في ذلك الحماية من أي خطر يمكن أن يصيب المخطوطات ، وأثق في أن دولاً أخرى في وطننا العربي سوف تحذو حذو هذه التجربة ، ونحن مدعوون إلى إيجاد الأماكن التي تحفظ هذا التراث من كل أذى محتمل .

نقطة أخرى أوجهها إلى معهد المخطوطات ، ولكم جميعاً : إن الكتب المكتوبة عن فلسطين ليست في فلسطين وحدها ، بل هي موجودة خارجها أيضاً في المكتبات العربية والإسلامية ، تُرى هل يمكن عمل فهرسة يكون موضوعها المخطوطات التي تتعلق بفلسطين في كل هذه المكتبات ، وتكون بين أيدينا لكي يستفيد منها الباحثون ؟

أما النقطة الأخيرة فهي نشر هذا التراث ودراسته وتوظيفه التوظيف الصحيح عن طريق توجيه الدارسين إلى تحقيق المخطوطات ودراستها ونشرها ، وقد بدأت جامعاتنا تنتبه إلى هذا ، ولكن الأمر يقتضي خطة دؤوبة ، تصدق فيها الجهود .

إن هناك جانباً مهمًا جدًا ، وهو التوظيف ، فنحن أمام تجربة مُرة جرت خلال السنوات العشر الماضية ، فلم نر في مفاوضات مدريد - مثلاً - أي توظيف لعلم التراث في التفاوض الذي تم ، ولا أقول إنه كان قصوراً من المفاوض ، بل أقول إنه لم يكن هناك تفاوض أصلاً ، وإنما كان إملاءً معدًا ، بدأنا نتخلص منه . والانتفاضة الحالية سوف تسهم إسهاماً كبيرًا في ذلك ، وعندما يكون هناك تفاوض جدّي ، وتكون هناك مجالات لتحكيم صحيح ، في هذه الحالة لابد من توظيف هذا التراث في تأييد المفاوض وتقوية موقفه وحجته .

وخير دليل على هذا ما حدث مع مصر في قضية طابا ؛ فقد تم توظيف التراث في إثبات الحق المصري . ونظيره ما حدث في النزاع بين اليمن وأريتريا على بعض الجزر ، فقد كان هناك جهد علمي رأيته في جامعة صنعاء من خلال معرض متميز .

نحن مدعوون من الآن إلى أن نهيىء أنفسنا ، ليس ضد العدو الصهيوني فحسب، بل ضد قوى الطغيان التي تدعمه، وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا .

لقد ذكر د. كمال أسماءً كان لها جهدها المتميز في خدمة التراث في فلسطين، وأحب أن أضيف إلى ما ذكره مجمع اللغة العربية ، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، والأخ خضر سلامة ، فقد كان له جهد في تصوير كل مخطوطات المساجد الكبيرة ، وأُصدرت من خلال المجمع في كتب متقنة .

ونذكر بالخير أيضاً المرحوم إسحاق موسى الحسيني الذي كان دأبه في مجمع اللغة العربية أن يعرّف في كل دورة مجمعية بإحدى المخطوطات ، ويقيم عليها بحثاً ، وفي السبعينيات تصدّى لتأسيس جامعة بيت المقدس .

هي رحلة ممتدة ، كلٌّ يقوم بدوره ، ولكننا نؤمن بأن دورنا هو موقع الرأس من الجسم ، هو موقع الفكر ، والحفاظ على الأمة ، وسنصل - بإذن الله - إلى يوم تتحرر فيه فلسطين .

■ **د. يوسف زيدان :**

ما هذا التهيب من الكلام في السياسة ، إنه تهيب لا أدري أين يقع بالضبط ؟ إذا كانت هذه الندوة ينظمها معهد المخطوطات العربية ، تحت مظلة جامعة الدول العربية ، ويشرف عليه أستاذ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، إذا كان هذا هو الحال فكيف لا أتكلم في السياسة ؟ وأينما وليت وجهي رأيت كل شيء قابلاً للانفجار ؟

لديَّ واقعتان تتصلان اتصالاً مباشراً بما نحن فيه من الكلام عن الثقافة والسياسة .

الواقعة الأولى حدثت في عام ١٩٩٥ ، فقد كانت هناك حالة من الاتكال على خلفية ما يُسمى بثقافة السلام ، ولقد كتبتُ في ذلك الوقت سبع مقالات بجريدة الأهرام حول المواجهة الثقافية مع إسرائيل ، ولقد ظلت هذه المقالات تتوالى لعدة أشهر ، ولم أجد لها أي صدى في مجتمعاتنا . وكان رد الفعل الوحيد الذي رأيته آتياً من الجانب الآخر ، ففي القناة الثانية من التلفزيون الإسرائيلي كان شيمون بيريز يناقش جماعة من المثقفين هناك ، وكان نص كلامه : « إن المواجهة مع العرب لم تعد الآن مواجهة عسكرية ، ولا يعني هذا أن المواجهة انتهت ، فالمواجهة الآن ثقافية » .

كان هذا دافعاً لي إلى أن أكتب المقالة الثامنة ؛ لأشير إلى رد الفعل الوحيد الذي وجدته على مقالاتي ، وهو رد من الجانب الآخر !

أما الواقعة الثانية ، فمنذ عامين كانت حالة من التوتر بين البلاد العربية وإسرائيل ، من تلك الحالات التي لا تستمر طويلاً ، وظُن ساعتها أن المثقفين المصريين يرفضون التطبيع . وجاء وزير خارجية إسرائيل إلى مصر ، وعاد إليهم هناك ، فالتقوا به في برنامج تلفزيوني ، فذكر ما نصه - وأنا شاهد على

هـذا - : « إن العلاقة مع مصر قوية ، ولا يكدرها مثل هذه الأقوال الصحفية ، وأنا عائد توّاً من مصر ، وقد أهداني الإخوة هناك مخطوطة قديمة للتوراة ، قدمتُها للكنيست ، وسعد بها سعادة عظيمة » .

فانظر كيف يتم التعامل مع المخطوطات ، نحن ننزف من أجل الحفاظ على هذه الثروة ، ثم يمنح شخص ما مخطوطة نادرة من التوراة إلى وزير خارجية إسرائيل .

بعد كل هذا كيف لا نتحدث في السياسة ؟ إن كل حديث ثقافي يخلو من بُعده السياسي حديث أجوف .

لقد بدأت حديثي بملاحظة ، وأختمه بملاحظة ، مفادها أن التعامل مع اليهود أو دولة إسرائيل يتم على صيغة التهويل دائماً ، فهم قتلة الأنبياء ، وهم محرفو الكتب ، إلى غير ذلك مما يُنعتون به . ولن ننتصر على هؤلاء بهذه الطريقة . قتلة الأنبياء هؤلاء لديهم الآن وادي فلافل ، ووادي فلافل هذا هو التسمية الإسرائيلية لوادي السيلكون الإسرائيلي . وختامًا أقول : لا تستهن بعدوّك قط ، وإلا فلن تغلبه .

■ **د. أيمن فؤاد سيد :**

إن قضية الأرقام في ذكر المخطوطات تحتاج دوماً إلى تدقيق ، ولقد ذكر د. كمال أن حجم المخطوطات في فلسطين يصل إلى ٩ آلاف مخطوطة ، فعلى أي أساس تم هذا الحصر ؟ خصوصاً أن المكتبات الكبيرة كمكتبة الأقصى - مثلاً - لا يشتمل فهرسها الذي أعده خضر سلامة إلا على ٣٦٦ مخطوطة فقط . إن هذا الرقم الكبير يحتاج إلى تدقيق ، أو على الأقل معرفة مصدره الحقيقي .

وأشار د. كمال إلى أن الفرنجة أو الصليبيين أحرقوا دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القدس . والحق أنني لم أسمع أن هناك دار علم أنشأها الحاكم

بأمر الله في القدس ، ولكن التي أُحرقت في عام ٥٠٢هـ ، هي دار العلم التي أُنشئت في طرابلس في شمال الشام .

وأقول تعقيباً على كلام د. يوسف زيدان : كنت في باريس في عام ١٩٩٣ ، وكان رئيس الدولة الفرنسي في زيارة إلى كوريا ، وقد حمل معه إحدى المخطوطات التي أخذها الفرنسيون من كوريا ، وكان مع المخطوطة اثنان من أمناء المكتبة الوطنية ، وحدث أثناء الزيارة أن قرر الرئيس الفرنسي إهداء المخطوطة إلى الحكومة الكورية ، فما كان من الأمناء إلا أنهم اعترضوا اعتراضاً صريحاً على قرار الرئيس ؛ لأن المخطوطة ملك المكتبة الوطنية ، وليست ملك الرئيس الفرنسي ، وتعاطف رئيس المكتبة الوطنية مع موقف الأمناء ، ولم تُمنح المخطوطة لكوريا ، على الرغم من أنها مسروقة - أصلاً - من كوريا !

■ **أ. محمد إبراهيم الشيباني :**

من المعلوم أن ألمانيا جمعت كثيراً من المخطوطات العربية ، ومما يدل على ذلك مكتبة جوته الموجودة هناك .

قلت هذا لأقول : إن هتلر أمر بجمع المخطوطات العربية ، وغيرها من مخطوطات الحضارات الأخرى من مكتبة الدولة في برلين ، ثم ترحيلها إلى مقاطعات ألمانيا .

أمر هتلر بهذا ، والحرب العالمية الثانية مشتعلة ، وقذائف الحلفاء تنصب على برلين ، وهذا الذي فعله هتلر أنقذ كثيراً من المخطوطات العربية ، ويدل على ذلك ما نجده من مخطوطات في كل مقاطعات ألمانيا . ولقد نَبَّهْتُ - قبل سنين - إلى ضرورة الاهتمام بالمخطوطات العربية في ألمانيا .

النقطة الأخرى هي الإسرائيليات في كتبنا أو في كتب التفسير ، أرى أنها غير مؤثرة - بفضل الله تعالى - على الحديث النبوي ؛ لأن الحديث له رجاله منذ القرن الثالث الهجري .

■ **أ. أسامة النقشبندي:**

ماذا عن المخطوطات التي نُهبت من المكتبة الخالدية ومن مكتبات أخرى غيرها ؟ كيف السبيل إلى استرجاع هذه المخطوطات التي انتقلت إلى المتحف البريطاني ، والجامعة العبرية ، ومختلف المكتبات في أوربا ؟

إنني أطالب المعهد بالتنسيق مع الجهات المعنية من أجل استعادة المخطوطات العربية التي انتُهِبَتْ من فلسطين خاصة ، ومن الوطن العربي بصورة عامة .

■ **أ. علي عليوه:**

استهان أ. الشيباني بالإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير ، وأستعير كلمة الدكتور زيدان : « لا تستهن بعدوك حتى لا يهزمك » .

وهناك رسالة جامعية في دار العلوم ، تعرضت لهذا الموضوع الشائك ، وناقشت ما يشكله من خطورة ، ولعل أهم خطر تشكله هذه الإسرائيليات في كتب التفسير كونها تستأصل عقيدة المسلمين ؛ إذ إن فيها نوعًا من تكريس الأكاذيب الإسرائيلية ؛ لذلك ينبغي أن نتعاون جميعًا على كشف هذه الإسرائيليات وتطهير كتب التفسير منها .

■ **د. حمد بن ناصر الدخيل :**

تعد فلسطين مركزًا مهمًا من مراكز التراث المخطوط ، ولقد كانت تحظى بطائفة كبيرة من المخطوطات العربية ، ولكنها تعرضت لعدد من الغزوات ، ومحاولات الإحراق والإغراق ، والتصدير إلى خارج أماكنها الأصلية .

ولعل الحروب الصليبية التي امتدت إلى أكثر من مئتي عام هي المحاولات الأولى التي تعرض من خلالها التراث العربي في فلسطين للتدمير والإحراق والتصدير ، ولقد استمعنا إلى ما ذكره الإخوة ، ولاحظنا من خلال البحوث والتعليقات أن العناية بالتراث العربي في فلسطين ليست على المستوى المطلوب .

وأذكر بعض المحاولات التي حاولت أن ترصد التراث العربي المخطوط في فلسطين ، منها محاولة محمد أسعد طلس ، ومحاولة محمد عزة دروزة ، إلى جانب ما كتبه د. كامل السوافيلي في كتابه « الأدب العربي في فلسطين » ؛ حيث تحدث عن مكتبة روح الخالدي ، ومكتبة محمد إسعاف النشاشيبي .

إنني أدعو معهد المخطوطات إلى تبني مشروع ، يستهدف حصر وفهرسة المخطوطات العربية في فلسطين ، مع الاستفادة مما كُتب حول هذا الموضوع .

■ د. كمال عرفات نبهان :

أشكر كل الذين اهتموا بالتعليق على ما قلت ، وأبدأ بموضوع التهيب من الحديث في السياسة ، فأقول : لقد كانت هذه دعابة ، ونحن لا نتهيب من الحديث في السياسة . بل إنني أتذكر مقالة كتبتها منذ خمسة وعشرين عاماً عن محاورة من محاورات أفلاطون ، مُوجزها أن الآلهة أرسلت رسولاً إلى البشر ؛ لكي يعلمهم السياسة ، وذلك عندما وجدت الحيوانات المتوحشة تفتك بهم على الأرض ، وأخبرهم الرسول أن من لا يتكلم في السياسة فسوف يموت ، فكانت حكمة ، وما زالت صادقة حتى الآن ، فنحن نموت عندما لا نتكلم في السياسة .

أما مقالة د. يوسف زيدان عن الثقافة والصراع مع إسرائيل ، فأنا لم أسعد بقراءتها ، وأحيي هذا العمل الذي قرأه اليهود ، ولم يهتم به أحد في بلادنا ، وهو يؤكد أن نظرتنا إلى المعركة كانت تنحصر دائماً في الدبابات والطائرات ، مع نسيان أن الجانب الثقافي أخطر من ذلك كله .

من الواضح أن ما يحرك الطفل الفلسطيني الآن إنما هو الحجر ، هذا الحجر هو الثقافة بمعنى من المعاني ، أما الذي يحرك الجندي الإسرائيلي فهو الدبابة ، ومن عجب أننا نشاهد الجندي الإسرائيلي ، وهو يجري من الحجر على الرغم من امتلاكه للمدفع .

وأما أرقام المخطوطات ، وهي النقطة التي أثارها د. أيمن ، فأقول : لقد اعتمدت على الحصر الوارد في دليل المخطوطات ومراكزها في فلسطين ، وهو حصر يدور في حدود ما علمته من المكتبات فقط ، وهو عمل تقريبي .

أرجو أن أُعذر ، ولا أحب أن أُضبط متلبساً بحصر عدد المخطوطات ، فهذه مشكلة لا يتعرض لها نصف عاقل .

بشأن دار العلم التي أُحرقت في بيت المقدس ، فقد قرأت عنها ولم أعاصرها ، ولكن د. أيمن أشار إلى مكتبة أخرى أُحرقت في طرابلس ، وهي دار العلم الشيعية التي أسسها بنو عمار ، ونُهبت عام ٥٠٣هـ ، في السنوات الأولى للحروب الصليبية .

أما الإسرائيليات ، فقد وجدتها في أحاديث الكبار من عائلتي ، وذلك عندما كنت صغيراً ، ولقد سجلتْ ذاكرتي أشياء كثيرة ، أعتقد أنها تُضعف العقل العربي .

أما عدد المخطوطات التي نُهبت من الخالدية ، فإن وليد الخالدي لم يشر إلى نهب لمخطوطات المكتبة ، وإنما أشار إلى عدوان على مبنى المكتبة .

قضية استرجاع التراث المنهوب قضية محيرة حقًا ، فإذا استرجعنا هذا التراث اليوم فسوف نبيده كما نبيد ما عندنا ! ولكنني أتكلم عن صورة في المستقبل لأمة أعدت مؤسساتها الثقافية ، واحترمت علماءها وأساتذتها ، واحترمت المباني والجدران والرفوف ، وأعطتها ما تعطيه لكرة القدم .

وعندما يحدث هذا أستطيع أن أقول : إننا نريد أن نستعيد ثقافتنا وأدواتنا من الغرب ، سواء كانت تماثيل أو مخطوطات أو غيرها .

ويمكن أن تُحل هذه المشكلة بأن يحتفظوا لأنفسهم بصور ، ويعطونا أصول هذه الأعمال ، لأنها تحفة جمالية نادرة ، فإذا كان جسد المخطوط ملكاً للأمة ، فإن محتوى المخطوط ملك للإنسانية جمعاء ، ونحن لا ننكر على الإنسانية أن تستفيد من كل ذلك .

■ **د. فيصل الحفيان :**

نحن لم نقصد الخوف من الكلام في السياسة ، وإنما قصدنا أن القضية قضية تراث ، فنحن نريد من السياسة ما يتصل بالتراث ، فإذا ما تجاوزنا ذلك فستتحول الندوة إلى كلام في السياسة ، وهذا ليس مطلوباً .

أما النقطة الأخرى فهي نقطة علمية ، أثارها د. كمال حول كلمة « برنامج » ، فقد قال : إنها بمعنى فهرس ، وإنها محدودة الاستخدام .

وأعتقد أن استخدام هذه الكلمة منتشر جدًا ، بل هو الغالب في بلاد المغرب ، والمراد بها ذكر الشيوخ والتلمذة لهم ، وفي ثنايا ذلك تأتي الكتب التي قرأوها على غيرهم ، أو ألّفوها وقرئت عليهم ، فكأن الهدف الأول من « البرامج » هو الرجال أنفسهم وتلقيهم العلم على بعضهم ، ومن ثَمَّ يعرض ذكر الكتب .

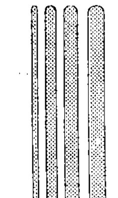
***

الجلسة الثالثة

التراث في فلسطين : واقعه ونفائسه



التراث العربي المخطوط
في فلسطين وفهارسه



أ. خضر إبراهيم سلامة

■ **د. حسين نصار (رئيس الجلسة) :**

لدينا في هذه الجلسة التي أشرُف برئاستها بحثان : أحدهما للأستاذ خضر إبراهيم سلامة ، مدير مكتبة المسجد الأقصى والمتحف القدسي ، عن التراث العربي المخطوط في فلسطين وفهارسه ، وثانيهما للدكتور . أيمن فؤاد سيد ، خبير المخطوطات المعروف ، ويدخل في تفصيلات البحث السابق ، فيعرض لنفائس التراث العربي في فلسطين .

وإني لأحسب أن الموضوعين يكملان بعضهما ؛ لتكون أمامنا صورة واضحة عن مواقع هذا التراث وما فيه من كنوز . وإذا ما أضفنا إلى البحثين التعقيبات والمداخلات التي ستشهدها الجلسة ، فإن الحصيلة ستكون - بلا شك - ثرية ، في رسم صورة واضحة المعالم لتراثنا المخطوط في جزء غالٍ من وطننا العربي .

ويحدِّثنا أولاً أ. خضر سلامة .

* * *

على الرغم من أن فلسطين لم تكن مركزاً من مراكز السياسة أو الثقافة في الدولة الإسلامية ، كدمشق أو بغداد أو القاهرة ، فإنها كانت وما زالت ذات قدسية كبيرة في نفوس المسلمين ، نظراً لوجود مدينة القدس بها ، هذه القدسية أدت إلى وجود طلبة العلم ، مما استدعى توفر الكتب والمكتبات في المساجد والمدارس على السواء .

والمعلومات عن مكتبات القدس[1] ومحتوياتها كثيرة ، ولكنها لا تزال متفرقة

---

(١) عن مكتبات القدس في القرن الرابع عشر الميلادي انظر مثلاً :

Haarmann, U. The Library of a forteenth-century jerusalem-scholar, Der Islam 61 (1984) pp. 327-333.

ويتعرض المقال في الأساس لمكتبة برهان الدين إبراهيم الناصري ، من خلال بضع وثائق في المتحف الإسلامي ، ترصد عناوين مخطوطات المكتبة (١٣٨ عنوانًا) بعد وفاة صاحبها عام ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م .

في بطون الكتب التراثية ، لم تُجمع أو تُدرس الدراسة التي تستحقُّها ، نجد هذه المعلومات في كتب التراجم ، وفي سجلات المحاكم الشرعية ، تلك التي تشمل الفترة العثمانية من عام ١٥٢٩ إلى عام ١٩١٧ ؛ فثمة وثيقة - مثلاً - تتعلق باستعارة عدد من الكتب من المكتبة التي كانت في قبة الصخرة ، من قبَل أحد القضاة في ذلك الوقت ، هذه الوثيقة تعرفنا أن المكتبة كان لها أمين ، ووكيل للأمين ، إلى جانب عناوين بعض الكتب التي كانت فيها .

والمكتبات في أول أمرها كانت تابعة للمساجد[١] ، ثم بدأتْ تنفصل شيئًا فشيئًا عنها ، وخاصةً في فلسطين . وتعد المصاحف هي النواة الأُولى لهذه المكتبات، ومع الزمن بدأت تَعْمُر بتفاسير القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث ، والكتب الدينية ، والشروح ، إلى جانب الكتب العلمية ، وإن كان ذلك في وقت لاحق .

واستمر هذا الوضع حتى نهايات الفترة العثمانية ، حيث بدأت المكتبات العامة في الظهور ، وفُتحت أبوابها لطلبة العلم ، ومنها مكتبة المدرسة الرشيدية ، والكلية العربية ، ودار كتب المسجد الأقصى ، ومكتبة جامع يافا ، والمكتبة الخالدية .

ولم يقتصر الأمر على ظهور المكتبات العامة في ذلك الزمان فحسب ، بل تَمّ جمع ما تبقّى من المصاحف والمخطوطات من المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وبعض مساجد فلسطين ، ثُم أُودع كلُّ هذا في المكتبة والمتحف الإسلامي ، وكان افتتاحها في عام ١٩٢٢ ، وذلك بمبادرة من المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين .

ويرى المتأمل في مكتبات القدس وباقي فلسطين أن جُلّ مخطوطاتها يتعلق بالعلوم الإسلامية واللغة والأدب العربي ، ولعل سبب هذا أن الوضع السياسي

---

(١) عن مكتبات المساجد ، انظر على سبيل المثال رسالة دكتوراه قُدمت لجامعة نوتردام ، في ولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، تحت عنوان : - Mohammad makki Sibai, An Historical Investigation of Mosque Library in Islamic Life and Culture.

والثقافي في ذلك الوقت لم يكن على ما يُرام ، ومن ثَمَّ خفَت شعاع الإبداع ، وساد اجترار كتب الأوائل ، ووضع الشروح والحواشي عليها . ويُضاف إلى هذا أن هذه المجموعات إنما وُجدت ونمت - أصلاً - في ظلّ المساجد والمدارس، وكان التعليم فيهما مقتصراً على العلوم الدينية بشكل خاص ، وآية ذلك أن الكتب العلمية - مثلاً - لا تشكّل إلا عدداً محدوداً من هذه المجموعات .

وينبغي أن يكون معروفاً أن جُلّ المخطوطات في فلسطين هي في الأصل شخصية ، جمعها عالم ديني ، درس في الأزهر غالباً ، ثم عاد إلى وطنه بعد أن أتَمَّ دراسته ، ثم بدأ يجمع الكتب من هنا وهناك ، يستعين بها في دروسه أو في فتاواه التي كان يجيب بها السائلين .

وقد تباع هذه الكتب بعد وفاة ذلك العالم ، إلا إذا قيض الله له خلفاً رشيداً ، يحافظ عليها ، وينمّيها . ومع مرور الزمن تحوّلت هذه الكتب إلى ما عُرف في نهاية الفترة العثمانية وما بعدها بـ « المكتبات العائلية » .

ثُمّ عدتْ عوادٍ ، فكان ما كان من أمر الاستعمار البريطاني الذي كان يُسمَّى انتداباً ، ثم جاءت الطامة الكبرى نتيجة حرب ١٩٤٨ ، مما أدَّى إلى نزوح عشرات الآلاف من أهالي فلسطين مُخَلِّفينَ وراءهم ممتلكاتهم بما فيها مكتباتهم ، إذ دُمِّر بعضها ، واستُوليَ على بعضها الآخر ، من قبَل الإسرائيليين . ومن هذه المكتبات التي اندثرت مكتبة حسن صدقي الدجاني ، ومكتبة عائلة جاد الله ، ومكتبة عبد الله مخلص[1] .

---

(١) انظر المزيد في :

- حسن عبد اللطيف الحسيني ، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري ، تحقيق سلامة النعيمات ، عمّان ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٥ .
- محمد كرد علي ، خطط الشام ، م٦ ، دمشق ، مطبعة المفيد ، ١٩٢٨ .
- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، القدس ، مكتبة الأندلس ، ١٩٦١ .
- كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، عمّان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨١ .

ومما يؤسف له أن ما بقي من مخطوطات في فلسطين قد فُقد جزء منه إما بالبيع، وإما بالتلف، وذلك بسبب الظروف السيئة التي تحفظ فيها هذه المخطوطات، مما أدّى، ويؤدي إلى تفشي الأرضة فيها .

والحق أنه لم يُجْرَ أي حصر ببليوجرافي لمجموعات مخطوطات فلسطين أو لـمَا كتب عنها من مقالات، باستثناء بعض محاولات فردية عن مخطوطة هنا أو مكتبة هناك، ولكن النقلة الحقيقية كانت في ما قامت به الجامعة الأردنية مُمَثَّلةً في د. محمد عدنان البخيت وجهوده، وذلك في أواخر السبعينيات[1]، وتمثلت هذه الجهود في التركيز على تصوير المخطوطات والسجلات والوثائق في فلسطين .

وثمة بعض الملاحظات أود إثباتها، قبل أن أخوض في الحديث عن مجموعات المخطوطات في فلسطين، وإن كنت قد أشرت آنفاً إلى شيء منها .

أولاً : هذه المكتبات هي في الأصل مكتبات فردية، جُمعت كل مكتبة منها بجهد شخص واحد، قد يكون هذا الشخص عالماً، وبعد وفاته كانت مكتبته إما أن تُباع، أو توزع بين الورثة، أو يغلق عليها في غرفة أو مكان ما، أي أن هذه المكتبة كانت تتوقف عن التطور وإفادة المجتمع، فهذه العائلات التي قامت على أمر هذه المكتبات لم تقم في الغالب بأي جهد في تطويرها أو تنميتها . ومع الزمن أصبحت المكتبة مجرد شكل أو مظهر غرضه المباهاة أو الفخر، واقتصر دور العائلة على

---

(١) لا يمكن ذكر تراث فلسطين دون المرور على الجهود المشكورة التي بذلها د. البخيت في تصوير تراث فلسطين، وهي محاولة رائدة في هذا المضمار، فعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتها، والأموال التي صرفت عليها، أثمرت توثيق هذا التراث والحفاظ عليه . وفي فترة لاحقة، تمثل الجهد في نشر فهارس للمخطوطات المصورة، ونشر ببليوجرافي لسجلات المحاكم الشرعية في فلسطين، من مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية . وأهم من ذلك أن هذا التراث سيُحفظ للأجيال القادمة .

منحها الاسم ، وعلى حراسة هذه الكتب في أماكنها المعتمة ، حيث الأرضة والحشرات التي تفتك بها ، إلى جانب منع المهتمين من الاقتراب منها !

ولا أدل على ذلك مما كتبه أسعد طلس حين قال عن المكتبة البديرية : « آل البديري أسرة عريقة من أعرق أسر القدس ، وقد كانت عندهم خزائن كبيرة غنية بمخطوطاتها ، ولكنهم اقتسموها فتشتت شملها ، وأكبر قسم من مخطوطات هذه الخزائن عند الشيخ محمد أفندي البديري ، الذي جعلها في جناح من أجنحة المسجد الأقصى ، ولم أستطع زيارة هذه المكتبة على شدة سعيي »(١) .

ثانياً :مخطوطات فلسطين تعاني من الأرضة ، ونادراً ما نجد مخطوطة ليس عليها آثارها ، ويستدعي هذا أن تُنْقَل هذه المخطوطات ، وتُجْمَع في أماكن تتوفر فيها الشروط الخاصة بتخزين المخطوطات ، من درجة الحرارة ، والرطوبة ، وغير ذلك ، ثم يتم معالجتها وترميمها .

إن الخطوة الرائدة التي قام بها د. محمد عدنان البخيت يجب أن تتبعها خطوات أخرى ، وأعتقد أنه آن الأوان لكي نولي تراثنا الاهتمام اللائق به ، وعسى أن يكون تركيزنا على هذا الجانب الثقافي من تراثنا في فلسطين هو بداية التغيير في مجتمعاتنا .

ثالثاً : المخطوطات في فلسطين بحاجة إلى الترميم ، وهذه مشكلة قائمة منذ أكثر من عقدين من الزمن ، ولابد من حل جذري ؛ لأن أي حل جزئي لن يجدي ، نحن بحاجة إلى قسم للترميم ، وإلى بعض الشباب كي يتدربوا على أساليب الترميم ، ويكون هؤلاء الشباب هم البداية ، ثم يُطوّر هذا القسم شيئًا فشيئًا . ولدينا أمثلة في البلاد العربية على ذلك ، فقد تَبَنَّى الألمان إنشاء قسم للترميم في كُلٍّ

---

(١) أسعد طلس ، دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها ، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٠ ، ١٩٤٥ ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ص : ٢٣٤-٢٤١ .

من اليمن وتونس ، إلى جانب تدريب العاملين فيه ، ونجحت التجربة ، وتقوم حاليًا عناصر محلية في هذين البلدين بترميم المخطوطات . والحق أن بعض الظواهر تشير إلى أن قسمًا للترميم سيتم إنشاؤه في غضون عامين من الآن، هذا إذا سارت الأمور على ما يُرام .

رابعاً : معظم تراث فلسطين من المخطوطات تتعلق موضوعاته بالعلوم الإسلامية والعربية وآدابها ، كما أن جزءًا ليس بالقليل منها يرجع تاريخه إلى الفترة العثمانية .

خامساً : مجموعات المخطوطات التي سيتم وصفها هي التي تم الاطلاع عليها ومشاهدتها ، ولا يعني هذا أنه قد لا تظهر مجموعات أخرى من المخطوطات هنا أو هناك ، وأنبّه إلى أنني لم أتعرض للمجموعات التي في حوزة الأديرة والكنائس في فلسطين ؛ لأنها بصورة أو بأخرى مغلقة أمام الباحثين .

سادساً : نُشرت فهارس عدد من مجموعات المكتبات ، ويُلاحَظ على هذه المجموعات أن الكثير من مخطوطاتها ورد دون عنوان أو اسم للمؤلف ، كما أن هناك عدداً من المخطوطات عبارة عن عدة أبيات من الشعر قد ترد في ورقة واحدة أو أكثر ، وتُعَدُّ في الفهارس مخطوطة . وسأشير إلى هذه الفهارس في ذيل الكلام على كل مكتبة ، كما سأشير إلى مجموعة المخطوطات إذا لم تكن قد صُوِّرت على أشرطة الميكروفيلم ؛ لأن معظمها تَمّ تصويره من قِبَل الجامعة الأردنية، وقد أشرتُ إلى هذا آنفًا .

سابعاً : المخطوطات غير متاحة ، والاطلاع عليها يحتاج إلى إذن خاص من مدير المكتبة . أما المكتبات العائلية ، فإن الإفادة منها تستلزم تنسيقًا مسبقًا مع متولي الوقف .

وبعد فهذه هي مجموعات المخطوطات في فلسطين ، موزعة على المدن التي هي منها ، وقد راعيت أن أعرف بالمكان أو الجهة التي تحتفظ بها ، وأشير إلى أوضاعها وأهم مافيها ، وأذكر قوائمها وفهارسها .

أبو ديس

قسم إحياء التراث الإسلامي

أنشئ القسم بقرار من وزارة الأوقاف والمقدسات الإسلامية في الأردن ، عام ١٩٨٣ ، بقرية أبوديس ، ثم انتقلت مسؤوليته إلى وزارة الأوقاف الفلسطينية في منتصف التسعينيات بعد فك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية .

وتتمثل مهمته في تجميع كل ما له عَلاقة بفلسطين من وثائق وأوراق ومخطوطات . . . إلخ ، بهدف فهرستها وتنظيمها وتوفيرها لخدمة الباحثين . وقد تَمّ جمع عشرات الآلاف من الوثائق التي كانت أيام الدولة العثمانية ، والانتداب البريطاني ، وخاصة ما يتعلق بالأوقاف ، ووثائق المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين .

كما تم تصوير جزء من مخطوطات فلسطين في المكتبات الأخرى . ويمتلك القسم حالياً ما يزيد على ثلاثة آلاف مخطوطة ، مصورة على « الفوتوستات » ، إلى جانب ست مئة مخطوطة أصلية ؛ جزء منها بالفارسية ، وآخر بالعثمانية . وقد جُمعت هذه المخطوطات من مصادر مختلفة ، مثل مكتبة مسجد يافا الكبير ، ومخطوطات مكتبة آل الجوهري ، ومكتبة الحاج نمر ، إضافة إلى الوقف الشخصي من قبَل أفراد من عائلة العفيفي المقدسية .

إن جزءاً كبيراً من هذه المخطوطات يعاني من الأرضة ، وجزءاً آخر منه مفقودٌ أوله أو آخره . ويذكر أن الكتب التي طُبعت على الحجر عُدَّت من المخطوطات ، وتصل نسبتها إلى ٢٠٪ . ونجد أكثر من نسخة للمخطوطة الواحدة ، بسبب تعدد

المصادر التي جاءت منها هذه المخطوطات ، ولعل كتاب « دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار » ، لسليمان الجزولي ، يكون مثالاً على ذلك ؛ إذ إن منه خمس نسخ ، منها نسخة بالفارسية ، وأخرى بالعثمانية .

ومن مخطوطات القسم :

- اللآلئ الفريدة في شرح القصيدة ، لمحمد بن الحسن الفاسي ، نُسخت في ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م .

- رسالة تحفة الأديب في الرد على أهل الصَّليب ، لعبد الله الترجمان ، نُسخت في ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م .

- تشنيف الأسماع بمشايخ الفقير عمر الشماع ، لعمر الشماع ، نُسخت في ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م .

- الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ،لعبد الغني النابسلي ، ومنه ثلاث نسخ ، ترجع إلى القرن الثالث عشر الهجري .

- ترجمة شيخ الإسلام صالح التمرتاشي ، لمحمد بن صالح التمرتاشي ، نُسخت في ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م .

ولمخطوطات القسم قوائم وفهارس :

- فهرس المخطوطات العربية المصورة : النحو والصرف ، ٣ أجزاء ، أبو ديس ، قسم إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٨٨ ، نُشر في كل جزء خمسون مخطوطة . واشتملت البيانات على اسم المؤلف ، وعنوان المخطوطة ، والناسخ ، وتاريخ النسخ ، والقياسات ، واستُعيض عن إيراد أول المخطوطة وآخرها ، بوضع صور «فوتوستات» ، للورقتين الأولى والأخيرة ، مع ذكر مكان وجود الأصل ، وجاء في نهاية كل فهرس أربعة مسارد لعناوين المخطوطات ، وأسماء المؤلفين ،

حسب الشهرة أولاً ، وآخر حسب الاسم الأول للمؤلف ، ثم مسود لأسماء النساخ ، إلى جانب وجود إشارات مرجعية للمؤلف والمخطوطة في الهوامش .

- قوائم من أربع وعشرين صفحة ، تحتوي على عناوين المخطوطات وأسماء المؤلفين وعدد الصفحات . وتحت الملاحظات تذكر حالة المخطوطة : ناقصة أو كاملة ، طباعةَ حجر أو كتابةَ يد .

والقسم في المراحل النهائية من إعداد فهارس علمية لمجموعة المخطوطات كاملة ، ويتم إدخالها في الكمبيوتر ، ونأمل أن يتم نشرها قريباً .

أبو سنان

مكتبة الشيخ عبد الله خير

تقع في قرية أبو سنان ، في شمال فلسطين ، ويرجع إنشاؤها إلى جهد شخصي ، فقد أسَّسها الشيخ عبد الله ، عام ١٩٣٠ ، وهي عبارة عن غرفتين منفصلتين عن بيت (قصر) الشيخ عبد الله ، وتحتوي على مئة واثنتين وأربعين مخطوطة ، يبحث أغلبها في العلوم الإسلامية ، واللسانيات . وأكثر هذه المخطوطات يرجع إلى القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الهجريين .

ومن مخطوطاتها :

- مخطوطة عن الشيعة ، لمجهول ، نُسخت في ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م .

- مصحف مزخرف ومزين بالذهب والألوان ، يرجع للقرن السادس عشر (الفترة العثمانية) .

- لطف السمر وقطف الثمر ، وهو ذيل ألفه نجم الدين الغزي على كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » .

وصدر لها فهرس :

- نعيم شهرباني ، فهرس مكتبة مخطوطات الشيخ عبد الله خير بن أبي سنان ، القدس ، معهد علوم آسيا وإفريقيا ، ١٩٦٤ (٤٨ صفحة) .

وقد اعتمد المفهرس في عمله على قائمة لعناوين المخطوطات ، عملها موشي شارون ، عام ١٩٦٣ ، وقسم عمله إلى خمسة فصول :

- مخطوطات عَرَف عناوينها ومؤلفيها ، مع بيان طبعاتها .
- مخطوطات عرف عناوينها ومؤلفيها ، ولكنها لم تطبع .
- مخطوطات عرف مؤلفيها ، ولم يعثر على عناوينها في المصادر .
- مخطوطات لم يعثر على عناوينها ولا مؤلفيها في المصادر .
- مخطوطات لم يعرف مؤلفيها ، ولم تذكرها المصادر .

ورتب المفهرس كل قسم من هذه الأقسام ترتيباً هجائياً على وفق اسم المؤلف . وأورد في آخر الفهرس مسردين بأسماء المؤلفين ، وعناوين المخطوطات مرتبة أيضاً . ولم تُصور هذه المخطوطات على ميكروفيلم .

برقين

مكتبة مسجد برقين

أُسست مع تأسيس مسجد برقين ، وذلك في عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م ، وتقع في قرية برقين ، الواقعة غرب جنين بخمسة كيلومترات ، ويبدو أن مخطوطاتها - وعددها إحدى عشرة - ترجع إلى عائلة جرار المشهورة ، أو مؤسس المسجد ياسين جرار .

ومن ضمن المجموعة مصحف ، وجزء (هو الرابع عشر) من القرآن الكريم ، أما باقي المخطوطات ، فإنها تبحث في موضوع التصوف .

ومن الملاحظ أن المجموعة مجهولة ، ولا يعرف أحد عنها شيئاً ، كما لم يُنشر أي شيء عنها ، ولم تُصور على ميكروفيلم .

الخليــل

مكتبة الحرم الإبراهيمي

لا يُعرف - تحديداً - تاريخ تأسيس المكتبة ، ولكن يُفترض أن ذلك تم في القرن السابع عشر الميلادي ، وطبيعي أن نواة المكتبة التي أُوقفت على الحرم الإبراهيمي من المصاحف ، وذلك على عادة مكتبات المساجد .

ويتم تخزين هذه المخطوطات في إحدى غرف المسجد ، وهي ليست مفتوحة للجمهور ، وتحتوي على مئة وأربعين مخطوطة باللغة العربية ، وخمس مخطوطات باللغة العثمانية .

ومن مخطوطاتها :

- المطول على التلخيص في المعاني والبيان ، لمسعود بن عمر التفتازاني ، نُسخت في ٧٩١هـ / ١٣٨٩م .
- السبعيات في مواعظ الديات ، لأبي نصر محمد بن عبد الرحمن الهمداني .
- رسالة في المساحة ، لمحمد بن محمد الروسي .
- نعمة الله في لغة الفرس ، لنعمة الله بن أحمد بن المبارك .

وصدرت لها فهارس :

- عطا الله ، محمود علي ، فهرس مخطوطات مكتبة الحرم الإبراهيمي - الخليل ، ط٢ ، نابلس ، مركز التوثيق والأبحاث في جامعة النجاح الوطنية ، ١٩٨٣ (١٧٤ صفحة) ، وقد نشر مجمع اللغة العربية في الأردن الطبعة الأولى .

احتوى الفهرس على مقدمة ، ومسارد في آخره ، للموضوعات ، ولأسماء المؤلفين ، ولعناوين المخطوطات ، وللنساخ ، وللأعلام ، وللكتب الواردة .

ويعيب الفهرس أن المخطوطات تَرد فيه دون ترتيب مسبق ، بغض النظر عن موضوعها أو تسلسلها الزمني أو الهجائي ، فقد نجد مخطوطة في النحو - مثلاً - تبدأ بحرف الألف تليها أو تسبقها أخرى في الحديث ، قد تبدأ بحرف النون .

واستدرك المفهرس هذا الخلل ، بعمل ستة مسارد في آخر الكتاب .

احتوى الفهرس على ست وخمسين مخطوطة ، مجهولة المؤلف ، إلى جانب عدد من المخطوطات هي في الحقيقة ورقة واحدة أو عدة أبيات من الشعر ، كما تَضَمّن الفهرس الإشارات المرجعية في الهوامش للمراجع والمصادر التي ذُكرت فيها المخطوطات .

القدس

إن أكثر المخطوطات العربية والإسلامية موجودة في مكتبات المدينة المقدسة ، سواء المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة ، ويعود ذلك إلى المكانة الدينية التي تحظى بها المدينة في نفوس المسلمين ، ولعل هذه المخطوطات - إضافة إلى الأماكن الأثرية وغيرها - تشير إلى الارتباط الوشيج بين المسلمين على اختلاف مشاربهم ، وما تمثله هذه المدينة في عقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم من مكانة لا يمكن تجاوزها لا حاضراً ولا مستقبلاً .

ويوجد في المدينة المقدسة تسعة مراكز ثقافية (مكتبات ومتاحف ومساجد) تخص المسلمين ، وتحتوي على مخطوطات تتفاوت في عددها من مركز إلى آخر .

هذا ؛ ويبلغ عدد المؤسسات الإسرائيلية التي تمتلك مخطوطات إسلامية ثلاث مؤسسات ، ولم يُتح لنا معرفة عدد المؤسسات المسيحية ، وما تملكه من هذا التراث . وسنتناول محتويات الأماكن الثقافية العربية والإسلامية أولاً ، ثم الإسرائيلية ، بغض النظر عن الترتيب الهجائي الذي اعتمدناه سابقاً .

١ - مكتبة العائلة البديرية :

تقع في البلدة القديمة ، بجانب باب الناظر ، أنشأها عالم صوفي درس في الأزهر الشريف ، ولم يكتف بذلك بل عمل على تنميتها . وكان إنشاؤه لها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، هذا العالم هو الشيخ محمد بن بدير ، الشهير بابن حبيش[1] ، (وفاته في ٢٧شعبان ١٢٢٠هـ/ ٢٠ تشرين الثاني١٨٠٥م)، درس في مصر نحو ثلاثين عاماً ، عاد بعدها إلى القدس ، واستوطن فيها ، وسكن الزاوية الوفائية ، ومات ودُفن فيها .

والحق أن المكتبة البديرية تُعد خير مثال على أن المكتبات العائلية في فلسطين هي في الأصل مكتبات خاصة ، ووَضْعُ المخطوطات في هذه المكتبة جيد ؛ إذ تخلو من الأرضة مقارنةً بالمخطوطات في مكتبات أخرى ، وإن كانت لا تخلو من بعض المشاكل ، كانفراط أوراق بعضها ، إلى غير ذلك .

ويبلغ عدد المخطوطات نحو سبع مئة مخطوطة باللغة العربية ، ومنها :

- الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ، نُسخت في ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م .

- مؤلفات الشيخ البديري ، مؤسس المكتبة ، وعددها ثمانية مؤلفات[2] .

(١) عنه وعن الزاوية الوفائية انظر :
- الجبرتي ، عبد الرحمن ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، القاهرة ، المطبعة العامرة ، ١٣٢٢ ، ج٢ : ٢١٦ ، ج٣ : ٣٧٨ ؛ تراجم أهل القدس ، ص : ٣٤٣ - ٣٩٨ ؛ العسلي ، كامل ، أجدادنا في ثرى بيت المقدس ، عمان ، مؤسسة آل البيت ، ١٩٨١ ، ص : ٣٨-٤١ ؛ العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨١ .

(٢) نشر حسن السلوادي من مؤلفاته قصيدة تحت عنوان « عرض وتحليل لقصيدة البديري في هزيمة نابليون في عكا » ، في كتاب ، مجموعة بحوث عربية مهداة إلى إسحاق موسى الحسيني ، بمناسبة بلوغه الثمانين ، ص: ١٩-٣٢ ، وللأسف فالكتاب لا يحتوي على مكان أو عام طباعة ؛ وفي نهاية القرن الماضي قام أحد طلبة جامعة النجاح في نابلس بتحقيق جزء الفقه من مخطوطة البديري ، وعنوانه « بغية الألباب في شرح غنية الطلاب » لنيل درجة الماجستير .

- منهاج الدكان ، لداود بن أبي نصر الكوهين العطار ، المتوفى ١٢٥٩ ، ولعلها نسخة المؤلف ، أو كُتبت في عصره .

- البراهين النواقض مباني ضلالات الروافض ، لإمام مسجد صفد وصيدا معروف بن أحمد ، وهي نسخة المؤلف ، كُتبت في ١٥٦٠ . وكان المؤلف قد زار مصر ، وشاهد إحياء ذكرى استشهاد الحسين . وكتابه ردٌّ على كُتب الشيعة ونقد لاحتفالاتهم .

- الأسانيد المباركة ، لابن حجر العسقلاني ، وهي نسخة المؤلف ، وتاريخها ١٤٤٩ .

وصدر لها فهرس :

- سلامة ، خضر ، فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ ابن حبيش) ، القدس ، إدارة الأوقاف العامة - مكتبة المسجد الأقصى ، جزآن ، (٦٧٧ صفحة) .

اشتمل الفهرس على مقدمة عن مؤسس المكتبة ، وعن العائلة البديرية في ٢٤ صفحة ، ورُتب الفهرس هجائياً ، ضمن ستة عشر موضوعاً ، تبدأ بالعلوم القرآنية ، فالعلوم الإسلامية ، فاللغة العربية ، فالأدب العربي ، فالتاريخ ، فالمنطق ، فالميقات ، فالحساب ، فالطب ، وأخيراً موضوعات متفرقة .

وقد ألحق بفهارس المخطوطات خمسة فهارس أو مسارد مرتبة هجائياً ، اشتملت على عناوين المخطوطات ، وأسماء المؤلفين ، والنساخ ، والأعلام الواردة في بند الملاحظات ، وهي تتضمن الأسماء التي وُجدت مكتوبة على نسخ المخطوطات ، سواء من قرأوها أو امتلكوها ، وأسماء الأماكن التي

وردت على المخطوطات ، إلى جانب بعض المخطوطات التي لم يُعرف مؤلفوها .

٢ - مكتبة العائلة الحسينية :

تقع في دار الطفل العربي ، في مركز الأبحاث الإسلامية ، بقصر إسعاف النشاشيبي ، وأُسست في القرن السابع عشر الميلادي ، ولا يُعرف على وجه التحديد متى وكيف جُمعت مخطوطاتها ؟ ولكن يُفترض أن للمرحوم إسحاق الحسيني دوراً في وضعها في مركز الأبحاث الإسلامية ، وغير مستبعد أن يكون له فضل في تجميعها من أفراد العائلة الحسينية ، فقد كان من أكثر الناس وعيًا واهتمامًا بالمخطوطات العربية في فلسطين .

ويبلغ عدد مخطوطاتها نحو ثمان مئة عنوان ، من ضمنها بعض المخطوطات باللغة التركية العثمانية . ولقد كانت المكتبة مغلقة في وجوه الباحثين ، ولم يتمّ فتحها إلا بجهود المرحوم إسحاق الحسيني .

ومن مخطوطاتها :

- شرح السير الكبير ، لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي ، ويعود تاريخ نسخها إلى ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م .

- الفتاوى التمرتاشية ، لمحمد بن عبد الله التمرتاشي ، ونُسخت في ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م .

- كتاب الحدود والأحكام ، لعلي بن محيي الدين بن محمود الشاصرودي البسطامي ، نُسخت في أدرنة عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م .

- رسالة في تكفير الشيعة والرافضة الإسماعيلية والاثني عشرية ، لمظهر بن عبد الرحمن بن علي بن إسماعيل .

- رسائل وتعليقات على محمد التفلاني ، للشيخ محمد البديري .

الفهـارس :

توجد للمكتبة قائمة ، تشتمل بياناتها على عنوان المخطوطة ، واسم المؤلف ، وغير ذلك ، صنعها المرحوم إسحاق الحسيني ، عام ١٩٨٦ .

وتقع القائمة في أربع وتسعين صفحة ، من الحجم المتوسط ، وعلمتُ مؤخّرًا أن أمين مكتبة المركز يقوم حالياً بإعداد فهرس لمجموعة المخطوطات المذكورة .

وفي المكتبة بطاقات تم عملها في فترة سابقة ، واحتوت على عناوين المخطوطات ومؤلفيها ، ولم يُنشر شيء عن المجموعة ، أو عن أيٍّ من مخطوطاتها .

٣ - المكتبة الخالدية :

تقع في القدس ، في طريق باب السلسلة ، وهو أحد أبواب الحرم الشريف الشرقية ، وأُسست في عام ١٩٠٠ ، وتعد من أشهر مكتبات القدس ، وقد يعود هذا إلى شهرة العائلة الخالدية في تاريخ فلسطين الوسيط والحديث ؛ إذ تقلد رجالاتها المناصب القضائية والسياسية الرفيعة خلال عدة قرون من التاريخ العثماني والمملوكي ، إلى جانب كونها أول مكتبة تفتح بشكل عام للجمهور في القدس منذ تأسيسها المبكر .

بلغ عدد المخطوطات التي تَمّ فهرستها أكثر من ألف ومئتي عنوان ، واشتملت على مخطوطات نادرة ، يرجع تاريخ بعضها إلى القرن الرابع الهجري ، ومعظم المخطوطات مكتوب باللغة العربية ، إلى جانب مخطوطات أخرى ، بعضها بالفارسية ، وبعضها بالتركية العثمانية ، ولا يخلو الأمر من عدد من الوثائق بالعربية والعثمانية ، تتعلق بتاريخ عائلة الخالدي .

استمرت المكتبة مفتوحة فترة طويلة ، غير أن الوضع السياسي في فلسطين كان له أثره على المكتبة ، مما أدى إلى إغلاقها بشكل جزئي في عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ، وكانت الاستفادة من المكتبة تتمّ عن طريق الاتصال بمتولي الوقف ، واستمر هذا الوضع إلى نهايات القرن الماضي ، إلى أن قامت عائلة الخالدي بمحاولة إحياء هذا الأثر ، فتم فتح المكتبة للجمهور ، إلى جانب إصلاحات أخرى شملت المبنى والمخطوطات أيضاً . وقد تم الانتهاء من عمل فهارس علمية لمخطوطات المكتبة[١] .

ومن مخطوطاتها :

- الأخبار المنثورة ، لمحمد بن الحسن بن دريدن ، نُسخت في القرن الرابع الهجري .

- منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر ، لعبد المنعم بن عمر بن حسن الجولاني ، نُسخت في ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م .

- كتاب « شاناق في السموم والترياق » ، لكانا كبا ، والنسخة في الأصل مترجمة عن البهلوية إلى السريانية ، ومنها إلى اللغة العربية .

وصدر لها فهارس :

- برنامج المكتبة الخالدية العمومية ، القدس ، مطبعة جورجي حبيب حنانيا ، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠ (٨٨ صفحة) ، قدم له محمد محمود الحبال ، واشتمل على الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وقُسمت مجموعة المكتبة إلى اثنين وثلاثين

---

(١) عمل السيد كونارد لورنس في فهرسة مخطوطات المكتبة لمدة سنتين ، ونشبت خلافات بينه وبين أفراد العائلة ، مما أدى إلى فسخ العقد بينهما ، وكلف السيد نظمي الجعبة بعمل فهرس للمخطوطات ، أكمله في عام ١٩٩٩ ، وتقوم مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن بطباعته في الوقت الحالي .

موضوعاً، واقتصرت على ذكر اسم الكتاب أو المخطوطة ، ومؤلفها ، وهل هو مخطوط أو مطبوع ؟

- قائمة بالإنجليزية لعناوين المخطوطات ومؤلفيها ، قام بعملها كونارد لورنس في عام ١٩٩٥ ، وتقع القائمة في إحدى وتسعين صفحة .

- الجعبة ، نظمي ، فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية ، أتم السيد نظمي الجعبة عمله منذ ما يقارب العام ، وتم الاتفاق بين العائلة ومؤسسة الفرقان في لندن على نشر الفهرس ، ونأمل أن يصدر قريباً .

٤ - مكتبة المسجد الأقصى :

تقع في الحرم الشريف (المدرسة الأشرفية) ، وأُسست بقرار من المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ، وذلك في عام ١٩٢١ ، وافتُتحت للمراجعين في عام ١٩٢٢ ، تحت اسم « دار كتب المسجد الأقصى » ، ونُقلت محتوياتها من مخطوطات وكتب إلى المتحف الإسلامي ، في الأربعينيات ، حيث أُغلق عليها حتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين ، إلى أن قررت إدارة الأوقاف الإسلامية في الضفة الغربية - وكانت تتبع وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في الأردن - إعادةَ إحياء هذا الأثر ، وتمّ ترميم مسجد المدرسة الأشرفية في القدس ، وافتُتحت في عام ١٩٧٧ ، تحت اسم « **مكتبة المسجد الأقصى** » .

ويتمّ في الوقت الحالي نقل المكتبة إلى مقر جديد مجاور للمتحف الإسلامي ، ونأمل أن يفتتح رسمياً في غضون عامين من الآن .

في المكتبة نحو تسع مئة مخطوطة : جزء بسيط منها بالعثمانية ، والفارسية ، ونحو مئة مخطوطة من المجموعة مبتور أولها وآخرها أو ملزمة منها ، أما باقي المجموعة فذو وضع جيد ، ونسبة الأرضة فيها محدودة .

وقد أُضيف للمكتبة بعد إعادة افتتاحها مكتبة الشيخ محمد الخليلي ، وسنتحدث عنها بعنوان منفصل ، كما أُلحقت بالمكتبة مجموعة الشيخ خليل الخالدي ، التي تحتوي على كتب مطبوعة ، وصحف فلسطينية ، وبضع مخطوطات .

ومن مخطوطاتها :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لبهاء الدين يوسف بن شداد ، نسخة المؤلف ، نُسخت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م .

- كشف الدسائس في ترميم الكنائس ، لتقي الدين السبكي ، ونُسخت ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م .

وصدرت لها فهارس :

* ثلاثة أجزاء صنعها أمينها خضر سلامة .

- الجزء الأول ، القدس ، إدارة الأوقاف العامة ، ١٩٨٠ .

- الجزء الثاني ، عَمّان ، مؤسسة آل البيت ، ١٩٨٣ .

- الجزء الثالث ، لندن ، مؤسسة الفرقان ، ١٩٩٦ .

اشتمل الجزء الأول على مقدمة بالعربية ، وأخرى بالإنجليزية ، في حين اقتصرت المقدمة في الجزأين الآخرين على العربية فقط ، وفي آخره مسارد اشتملت على رقم المخطوطة ، واسم المؤلف ، وتاريخ ميلاده ، ووفاته ، وأسماء المخطوطات ، إلى آخر هذه البيانات ، ورُتبت مخطوطات كل جزء هجائياً ، داخل الموضوعات .

٥ - مكتبة الشيخ محمد الخليلي :

تقع في الحرم الشريف (مكتبة المسجد الأقصى) ، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى عام ١٧٠٠ تقريبًا، وقد أنشأها مفتي الشافعية في القدس الشيخ محمد الخليلي، وظلت تنتقل من مكان إلى آخر ، بعد وفاة الشيخ محمد الخليلي ، مما أدى إلى وجود أوراق وملازم متناثرة، تساقطت من المخطوطات في حلها وترحالها، وتحتاج إلى الوقت والأيدي الخبيرة لإعادة ترتيبها، وإرجاعها إلى أماكنها في المخطوطات .

والحقَّ أقول : إن مخطوطات الشيخ محمد الخليلي هي أسوأ المجموعات في فلسطين حظاً ، فقد فتكت بها الأرضة والرطوبة فتكاً ، وتقوم حالياً دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس بعمليات تبخير دورية ، في محاولة لإنقاذها .

ولقد تم ترقيم هذه المخطوطات بالتسلسل ، إلا أن جزءًا منها في حالة لا تسمح بالاقتراب منها حتى الآن !

ومن مخطوطاتها :

- مؤلفات الشيخ الخليلي ، ولا يُعرف عنها الكثير ، وهي عشر مخطوطات تقريبًا ، وتحتاج إلى دراسة وتحليل علمي .

- حادي الأسرار إلى دار القرار ، لشهاب الدين أحمد بن محمد ، وهي نسخة المؤلف ، ترجع إلى ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م .

- السيوف الصقال في رقبة من ينكر كرامات الأولياء بعد الانتقال ، لعبد الباقي المقدسي الخزرجي ، نسخة المؤلف ، نُسخت ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م .

- قمع النفوس ورقية الميؤوس ، لتقي الدين أبي بكر محمد الحصني ، كُتبت في ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م .

- مخطوطة تحتوي على إجازات وسماع محمد بن محمد بن أحمد المقدسي، نسخة بخط المؤلف، نُسخت ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م .

وليس لها فهارس، ولكن توجد قائمة أولية لمخطوطاتها . ويتم فهرستها حالياً، وقد نَجَزَ الآن نحو ثلثها، إلا أن نقل المكتبة إلى مقرها الجديد قد يؤخر إتمام الفهرس .

٦ - المتحف الإسلامي :

يقع في الحرم الشريف (مسجد المغاربة)، وقد أُسس في عام ١٩٢٢، وكان الهدف من إنشائه تجميع مخلفات الآثار الإسلامية، بعد عمليات الترميم التي كانت نشطة، خاصة بعد الزلازل التي تعرضت لها فلسطين في أوائل القرن العشرين، إضافة إلى جمع ما تبقّى من الربعات والمصاحف التي كانت في المسجدين، وفي بعض مساجد فلسطين الأخرى مثل الخليل ونابلس .

ويبلغ عدد مصاحف المتحف نحو ستمائة مصحف، تتفاوت من حيث الحجم والخط والتزيين .

وتعرضت مجموعات المتحف إلى أكثر من مرحلة للترميم، إحداها في القرن الثامن عشر، وأخرى في الثلاثينيات من القرن العشرين .

وفي المتحف إلى جانب المصاحف مجموعة قيمة من الوثائق المملوكية، تتعلق بالحياة في القدس بشكل خاص، وفي فلسطين بشكل عام من بيع، وشراء، ومراسيم سلطانية، وزواج، إلى غير ذلك .

ومن مصاحف المتحف :

- النصف الثاني من مصحف مكتوب بالخط الكوفي، يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي .

- الربعة المغربية، وهي موقوفة على المسجد الأقصى من قِبَل ملك المغرب أبي الحسن المريني، كتبها بخط يده في مدينة فاس، في عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م،

وفُقدت منها خمسة أجزاء في الفترة العثمانية ، واستُبدلت بأجزاء جديدة في القرن الثالث عشر الهجري ، كما فُقد الجزء الثلاثون منها في عام ١٩٣٠ ، وهذه الربعة ذات أهمية ؛ إذ إنها تمثل الخط المغربي المتطور عن الخط الكوفي .

- ربعة السلطان مراد الثالث ، وهي مكتملة في أجزائها ، وتمثل أسلوب التزيين العثماني للمصاحف .

وصدر له فهارس :

- الجعبة ، نظمي ، فن كتابة المصحف الشريف وتجميله ، مجلة هدى الإسلام ، العدد ٦ ، شهر آذار ، لعام ١٩٨٤ ، ص : ٣٠-٤٥ .

- سلامة ، خضر ، المصاحف في المتحف الإسلامي ، وهذه الدراسة في باريس منذ شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٧ ، بهدف طباعتها على نفقة اليونسكو ، وهي باللغتين العربية ، والإنجليزية ، ويعلم الله متى ستُطبع .

— Little, D. Catalogue of the Islamic Documents from al-Haram al-Sharif in Jerusalem, Beirut, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag, 1984.

٧ - مكتبة كلية الدعوة وأصول الدين :

تقع في القدس (بيت حنينا) ، أُسست في عام ١٩٧٦ ، وترجع مخطوطاتها إلى مصدرين : الأول الشراء ؛ إذ تم شراء مئتي مخطوطة تقريباً من السيد فهمي الأنصاري ، أما الثاني فهو الإهداء ؛ إذ أهديت إلى الكلية مجموعة من المخطوطات عن طريق عائلة صندوقة .

وقد بلغت مخطوطات الكلية نحو ٢٤٩ مخطوطة ، ٢٩٠ منها باللغة العربية ، و ٥٥ باللغة التركية العثمانية ، وأربع مخطوطات باللغة الفارسية ، ويبحث أغلب مخطوطات المجموعة في العلوم الإسلامية ، والعلوم اللسانية .

ومن مخطوطاتها :

- ملتقى الأبحر في فروع الحنفية ، لإبراهيم بن محمد الحلبي ، وهناك نسختان من هذه المخطوطة ، إحداهما نسخة المؤلف، وتاريخها ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م .

- تعليق الفواضل على إعراب العوامل ، لحسين بن أحمد ، الشهير بزيني زاده ، ونُسخت ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م .

- شرح أصول الحديث ، لداود بن محمد القارصي الحنفي ، نُسخت في ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م .

وصدرت لها فهارس :

- العلمي ، أحمد ، فهرس مخطوطات كلية الدعوة وأصول الدين ، عمّان ، مجمع اللغة العربية الأردنية ، ١٩٨٦ (٣١٦ صفحة) .

يعيب الفهرس أن المخطوطات لا تخضع لأي ترتيب ، وجزء منها مجهول المؤلف أو حتى العنوان ، وكثيراً ما يقتصر أول المخطوطة على البسملة والحمدلة .

٨ - المحكمة الشرعية (دائرة قاضي القضاة) :

تقع في الحرم الشريف (القبة النحوية) ، وتَمَّ تأسيسها في الفترة العثمانية ، وكانت هذه المحاكم الشرعية[1] نواة الحكم الإداري في مدن الدولة العثمانية ، وكان القاضي في مدينة القدس ذا مكانة كبيرة في إدارة شؤون المدينة ، ومع مرور الوقت تراكمت ثروة وثائقية كبيرة في المحكمة ، عُرفت بالسجلات .

(١) عن سجلات المحاكم الشرعية في فلسطين ، وأماكن وجودها وتواريخها ، انظر :
محمد عدنان البخيت ، كشف إحصائي زمني لسجلات المحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية في بلاد الشام ، عمان ، الجامعة الأردنية، ١٩٨٤ .
Khader Salameh, Ottoman Jerusalem «*Aspect of Shari'a Recordes*» fourth coming publication.

وتحتوي المحكمة الشرعية في القدس على ما يقارب (٧٠٠) سجل ، وهي مكتوبة بخط اليد ، وتتسم بالقدم ، وتتضمن معلومات مهمة ، وهي بمثابة الوثائق، وتغطي الفترة العثمانية مع انقطاع في بعض السنوات .

هذه السجلات ذات أهمية كبيرة ؛ إذ لا يمكننا بدونها أن نرسم صورة جلية للحياة في تلك الفترة ، ومن الصعب أن تكتمل دراسة جادة للحياة الاقتصادية بين مصر وفلسطين - مثلاً - دون الرجوع إليها ، وقد كُتبت بالعربية ، وكُتب بعضها بالتركية العثمانية .

هذا ، وكانت المحكمة الشرعية قد كلَّفتْ المرحوم أسعد الإمام مع فريق من موظفيها - منذ عقدين - بعمل فهارس لهذه السجلات ، وعمل الفريق ، لكنا لم نر نتاج العمل ، هذا إلى جانب ما كُتب عن هذه السجلات من مقالات بالعربية أو بالإنجليزية . ويذكر أن هذه السجلات اعتُمدت مصادر أساسية في كثير من الدراسات والأبحاث العلمية ذات العلاقة بالفترة العثمانية .

٩ - المتحف الفلسطيني :

يقع في القدس الشرقية ، وأُسس عام ١٩٢٧ ، ولا يحتوي إلا على عشرين مخطوطة ، مصورة على « الفوتوستات » ؛ مصدرها المكتبات المحلية ، وصورت في عام ١٩٤٠ ، ومنها مصورتان لمخطوطتين من المكتبة الخالدية ، ولكنهما مفقودتان في الوقت الحاضر .

ومن مخطوطاته المصورة :

- نصاب الاحتساب ، لعمر بن محمد الشامي .
- تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري ، لحسن بن عبد اللطيف الحسيني[1] .

---

(١) قام سلامة النعيمات بتحقيقها ، وتقدم بها لنيل درجة الماجستير من الجامعة الأردنية في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين ، ونشرتها الجامعة عام ١٩٨٥ .

الفهارس :

لا يوجد فهرس لمصوراتها ، ولا تُعرف عناوين المخطوطات التي صُورت .

نابلس :

تأتي نابلس في الدرجة الثانية بعد القدس في عدد المخطوطات التي تحتويها ، ومن الواضح أن المجموعات الخطية في هذه المدينة تتشابه في وضعها مع مجموعات المخطوطات في القدس ، وذلك في كونها مكتبات أسسها أفراد من العائلات ، ومن ثَمَّ أصبحت تحمل أسماء العائلات في المدينة ، كما أنها مثل مخطوطات القدس تعاني من الأرضة والرطوبة ، وأغلبها يرجع إلى الفترة العثمانية ، إلى جانب أن موضوعاتها تتعلق باللغة العربية والدين الإسلامي .

ولابد في هذا المقام من التنويه بالجهود التي بذلها محمود علي عطا الله ، في تصوير وفهرسة المخطوطات في نابلس خاصة ، وفي يافا وعكا .

١ - مكتبة مسجد الحاج نمر النابلسي :

أُسست في عام ١٩٣٨ ، وعُرفت باسم المسجد الذي أسسه ودُفن فيه الحاج نمر ، وتحتوي على ثمان وتسعين مخطوطة ، يتصل أغلبها بموضوعات دينية وأخرى لسانية . وقد صورتها الجامعة الأردنية ، كما صورها مركز التوثيق والمخطوطات في جامعة النجاح في نابلس .

ومن مخطوطاتها :

- دفتران يرجعان إلى عام ١٩٠١ ، يحتوي كلاهما على تركة لأشخاص من نابلس وقراها .

- الجواهر الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ، لمحمد بن أمين بن عابدين ، في جزأين .

- شرح ثلاثية المسند ، لمحمد بن أحمد السفاريني ، وهي نسخة المؤلف ، ويرجع تاريخها إلى ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م .

- الحبائك في أخبار الملائك ، لجلال الدين السيوطي .

وصدر لها فهرس :

- عطا الله ، محمود ، فهرس مخطوطات مكتبة مسجد الحاج نمر ، عمّان ، مجمع اللغة العربية الأردني ، ١٩٨٣ (١٥٤ صفحة) .

صنع محمود عطا الله هذا الفهرس على نمط فهرس الحرم الإبراهيمي في الخليل ، وذيّله بسبعة مسارد .

٢ - مكتبة عائلة الجوهري :

أُسست في القرن الثامن عشر الميلادي ، ومخطوطاتها لدى السيد أحمد الجوهري ، وقد جُمعت في فترة سابقة من أفراد العائلة ، ويبلغ عددها اثنتين وخمسين مخطوطة ، منها خمس وثلاثون تبحث في الفقه . وثمة سبع مخطوطات كُتبت على أيدي أفراد من العائلة .

ومن مخطوطاتها :

- هادي النبيه إلى شرح التنبيه ، لعمر بن أحمد الأنصاري ، نُسخت في ٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م .

- بهجة الناظرين وآيات المستدلين ، لمرعي بن يوسف الكرمي ، نُسخت في ١٦٤٤ .

- الرسالة الجوهرية لطالب شرح حل الآجرومية ، لعبد الله بن عبد الغفور الجوهري ، نُسخت في ١٧٢٤ ، وهي نسخة المؤلف .

وصدر لها فهرس :

- عطا الله ، محمود ، فهرس مخطوطات المكتبة الجوهرية ، نابلس ، جامعة النجاح الوطنية ، ١٩٩٠ (١١٣ صفحة) .

ويلاحظ على الفهرس أن صاحبه قد توسع في إيراد أول وآخر المخطوطة ، كما ذكر المراجع التي استعان بها في تحقيق عنوان المخطوطة ، ومؤلفها . وقد ذيله بستة مسارد .

٣ - مكتبة عائلة تفاحة :

أُسست في القرن التاسع عشر الميلادي ، وعدد مخطوطاتها مئة وأربع مخطوطات ، منها ثماني مخطوطات للشيخ أحمد تفاحة الحسني ، وهو أحد أفراد العائلة ، ونسخ بيده ثلاثًا أخرى ، أما ابنه ، فقد قام بنسخ تسع مخطوطات . ويبحث جُلُّ هذه المخطوطات في الدين الإسلامي ، وفي اللسانيات .

ومن مخطوطاتها :

- شرح العقائد النسفية ، لمسعود بن عمر التفتازاني ، نُسخت في ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م .

- الفوائد الشنشورية في نظم الرحبية ، لجمال الدين عبد الله بن محمد الشنشوري ، نُسخت في ٩٨٤هـ / ١٥٧٧م ، وهي نسخة المؤلف .

- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ، لشمس الدين محمد بن الشربيني الخطيب ، نُسخت في ١٧٥١ .

وصدر لها فهرس :

- عطا الله ، محمود ، فهرس مخطوطات آل تفاحة ، نابلس ، جامعة النجاح الوطنية ، ١٩٩٣ (١٦٥ صفحة) .

ولم يخرج المفهرس في فهرسه هذا على الطريقة التي اتبعها في الفهارس السابقة .

٤ - مكتبة عائلة القمحاوي :

أُسست في القرن الثامن عشر الميلادي ، ويرجع تأسيسها إلى الشيخ مسعود ابن إبراهيم القمحاوي ، وقد أوقفها على نفسه ، ثم على ذريته من بعده ، وتوارثتها العائلة إلى أواخر القرن الماضي ؛ وقام السيد زياد حلمي القمحاوي، أحد أفراد العائلة ، بتسليم المخطوطات إلى دائرة أوقاف نابلس ، من أجل المصلحة العامة .

وتحتوي المكتبة على مئة وثماني عشرة مخطوطة ، جميعها باللغة العربية ، نصفها في العلوم الإسلامية ، وثمان وأربعون منها في الفقه ، وما بقي منها في العلوم اللسانية .

وتتشابه هذه المخطوطات في وضعها مع مخطوطات المكتبات الأخرى في المدينة نفسها ، إذ تنتشر الأرضة والرطوبة فيها ، إضافة إلى وجود بعض المخطوطات مجهولة المؤلف أو العنوان .

وترجع إلى الفترة العثمانية ، وقد نُسخت أقدم هذه المخطوطات عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م .

ومن مخطوطات المكتبة :

- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، لسليمان بن عمر العجيلي، ويُعرف بالجمل ، وهو في أربعة أجزاء ، نُسخ في ١٨٤٤ .

- ترغيب المشتاق في أحكام مسائل الطلاق ، لعبد المعطي بن سالم الشبلي السملاوي ، نُسخت في ١٧٣٣ .

- حواش على فتح القريب المجيب والقول المختار في شرح أبي شجاع ، المسَمَّى بالتقريب وغاية الاختصار ، لأحمد بن أحمد القليوبي ، نُسخت في ١٦٤٢ .

وصدر لها فهرس :

- عطا الله ، محمود علي ، فهرس مخطوطات مكتبة آل القمحاوي ، نابلس ، عمان ، الجامعة الأردنية وجامعة النجاح الوطنية في نابلس ، ١٩٩٢ (١٦١ صفحة) .

قَسَّم المفهرس الفهرس إلى ستة موضوعات ، وذيّله بسبعة مسارد .

عكا :

- المكتبة الأحمدية :

تقع في جامع الجزار ، أُسست في القرن الثامن عشر الميلادي ، وتحتوي على ست وثمانين مخطوطة ، ثمان منها باللغة التركية العثمانية ، وباقيها باللغة العربية .

ومن مخطوطاتها :

- حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار ، لمحيي الدين النووي ، نُسخت في ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م .

- الإشاعة في أشراط الساعة ، لمحمد بن عبد الرسول الشهرزوردي .

- الدر المستطاب في موافقات عمر بن الخطاب ، لمحمود بن علي العمادي .

يافا :

- مكتبة الجامع الكبير :

تقع هي الأخرى في جامع الجزار ، وأُسست في ١٩٢٣ ، وكانت إحدى المكتبات التي أنشأها المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ، وتحتوي على ٣٣٩ مخطوطة ، منها ٣٠٧ بالعربية ، وأربع بالفارسية ، وثمان وعشرون باللغة التركية العثمانية .

ومن مخطوطاتها :

- الإشراف على فضل الأشراف ، لإبراهيم السمهودي ، وهي نسخة المؤلف، نُسخت في ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م .

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، لزكريا بن محمد القزويني .

- الذخائر الأشرفية في ألغاز الحنفية ، لعبد البر بن محمد المعروف بابن الشحنة .

* * *

إن كل المخطوطات في فلسطين (ما ذكرناه آنفًا)هي مخطوطات عربية فلسطينية ترجع ملكيتها إلى أهل فلسطين العرب الشرعيين ، مؤسسات ، وأفراد وأسر ، ولكن ثمة جهات تم إنشاؤها بعد ظهور الكيان الإسرائيلي عام ١٩٤٨ ، جُمعت فيها المخطوطات بالاستيلاء عليها أو شرائها من داخل فلسطين وخارجها . وفي ما يلي بيان بهذه المجموعات في أماكنها الحديثة ، لتكتمل صورة تراثنا العربي في فلسطين .

حيفا

مكتبة جامعة حيفا

تم تأسيسها في عام ١٩٧٩ ، ويوجد فيها ست وأربعون مخطوطة ، جميعها باللغة العثمانية ، ويبدو أنها أُلحقت بالمكتبة في عام ١٩٧٩ ، وهي في الأصل ملك لأحد الورثة ، وقام بالتبرع بها للمكتبة ، ولا تملك الجامعة مخطوطات عربية .

القدس

١ - المكتبة الوطنية ومكتبة الجامعة العبرية :

تقع - تحديداً - في القدس الغربية ، أُسست في عام ١٨٩٢ ، وتحتوي على ما يقارب نصف المخطوطات في فلسطين ، فقد بلغ عدد مخطوطاتها ٢١٤٣

مخطوطة ، منها أربع مئة مخطوطة بالفارسية ، ومئة وعشرون مخطوطة مزينة بالرسومات ، ومئة مخطوطة بالعثمانية ، إضافة إلى مئة وعشرين مصحفاً . وعدة مئات من هذه المخطوطات تُعَدُّ في النوادر .

وثمة ثلاثة مصادر لمخطوطات المكتبة : الأول : مجموعة يهودا ، وهو تاجر يهودي ، عاش بين عامَي ١٨٧٧ ، ١٩٥١ ، وأُهديت مجموعته بعد وفاته للمكتبة ، وعدد مخطوطات هذه المجموعة ١١٣٥ مخطوطة .

أما المصدر الثاني فقد قدمته الحكومة الإسرائيلية للمكتبة ، وعدد هذه المخطوطات ٥٤٣ مخطوطة ، إضافة إلى ما هو موجود في المكتبة - أصلاً - من مخطوطات ، وعددها ٤٦٥ مخطوطة .

الفهارس :

لا توجد فهارس مطبوعة لمخطوطات المكتبة ، وقد قام المسؤول عن قسم المخطوطات بعمل بطاقات بالعربية لجميع المخطوطات والمؤلف ، والموضوع .

وتَمّ حديثًا صنع فهارس مفصلة لجميع المخطوطات ، عن طريق الكمبيوتر ، ولكنها لم تنشر حتى الآن .

٢ - متحف ذكرى مائير (المتحف الإسلامي) :

يقع في القدس الغربية ، في شارع بلماخ - تحديداً - أُسس في عام ١٩٧٤ ، وهو متحف خاص أنشأته زوجة عالم الفن الإسلامي ل. مائير ، تخليداً لذكراه . ويحتوي على ما جمعه الرجل أثناء حياته من مخطوطات وتحف إسلامية ، ويبلغ عدد المخطوطات تسع عشرة مخطوطة ، سبع منها بالعربية : مصحفان ، وأربعة أجزاء من ربعات ، ومخطوطة عربية ، وجميعها مزينة بالرسوم النباتية والهندسية ، أما باقي المخطوطات فهي فارسية مزينة بالرسوم أيضًا .

ومن مخطوطاته :

- رسالة دعوة الأطباء ، لابن بطلان ، وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي .

- فتوح الحرمين[1] ، لمحيي الدين عبد الرحمن الناصري ، وهي وصف مزين بالرسوم للحرمين الشريفين في مكة والمدينة .

الفهارس :

ولا يوجد فهرس لهذه المخطوطات ، ولكن المتحف قام بعمل بطاقات للمخطوطات ، اشتملت على اسم المؤلف ، والعنوان ، والقياسات .

٣ - المتحف الإسرائيلي :

يقع في القدس الغربية ، أُسس في عام ١٩٦٥ ، ويحتوي على أربعين مخطوطة بالعربية ، والتركية ، والفارسية ، وجميعها مزينة بالرسوم والألوان المختلفة .

ومن مخطوطاته :

- خمسة مصاحف ترجع للفترة بين القرنين الخامس عشر ، والتاسع عشر .

- أربع نسخ من « دلائل الخيرات » ، لمحمد بن سليمان بن الجزولي ، ترجع إلى القرنين السادس عشر ، والثامن عشر .

- قصة يوسف وزليخة ، لنور الدين عبد الرحمن حامي ، نسخة من بخارى ، يرجع تاريخ نسخها إلى عام ١٥٧٠ .

---

(١) تعمل رحيل مليشتين على تحقيقها ، وهي محاضِرَة في موضوع الفن الإسلامي بالجامعة العبرية .

الفهارس :

لم تُنشر فهارس لهذه المجموعة بشكل منفصل ، ولكن نشر المتحف كتابًا عن المخطوطات والأوراق التي تحتوي على رسوم شرقية ، مثل المخطوطات الإيرانية . وضمن الكتاب صور عن المخطوطات العربية . والكتاب هو :

Milstein, R. Islamic Painting in the Israel Museum, with the contributions by N'ama Brosh, Jerusalem, Israel Museum, 1984, 220 pp.

تل أبيب

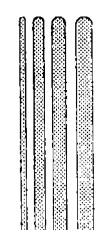
- مكتبة جامعة تل أبيب :

أُسست في عام ١٩٥٧ ، وتحتوي على تسع وأربعين مخطوطة ، ولعل أهم مخطوطة فيها :

- القسم الثاني من الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، لأحمد بن إبراهيم الثعالبي .

* * *





نفائس المخطوطات في مكتبات فلسطين

د. أيمن فؤاد سيد

لا نكاد نعرف شيئًا كثيراً عن دور الكتب ومعاهد العلم في فلسطين والقدس قبل العصر الأيوبي ، سوى ما ذكره القفطي في ترجمته للحكيم أبيذقلس عند ذكره لأحد مصنفاته قال : « رأيته في كتب الشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ، التي وَقَفَها على البيت المقدس الشريف»[1] .

لقد كان دخولُ صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى مدينة القُدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٤م حادثًا خطيراً من الناحيتين : السياسية ، والعلمية . فقد كان من أوائل أعمال صلاح الدين بعد الفَتح الأعظم تأسيسُ المدارس استكمالاً للنهج الذي بدأه السلاجقة مع نظام المُلْك في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وتَمَّمه سيده السلطان الشهيد نور الدين محمود في دمشق .

وقد بدأ صلاح الدين هذا التغيير بتحويل دار الإسبتارية La maison des Hospitaliers إلى مدرسة لتعليم الفقه الشافعي وعلوم العربية ، ثم أمر بهدم البناء الذي أحدثه الفرنج الصليبيون في الصخرة « وأعادها كما كانت ورَتَّب لها إمامًا حسن القراءة ، ووَقَف عليها داراً وأرضًا ، وحَمَل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وخَتْمات ورَبْعات شريفة » ، ووَقَف في عام ٥٨٧هـ/ ١١٨٨م المدرسة الختنية ، المجاورة للمسجد الأقصى خلف المنبر للشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد الشاشي ، المجاور في القدس ولمن يحذو حذوه ، كما حَوّل كنيسة حنه ، أم مريم - عليها السَّلام - إلى مدرسة ، سمّاها المدرسة الصلاحية ، ووَقَفَها في ١٣ رجب ، عام ٥٨٨هـ/ ١١٨٩م . وكانت هذه المدارس تُزَوَّد بخزائن الكتب المشتملة على نُسَخ القرآن والرَّبْعات وأُمَّهات الكتب .

---

(١) القفطي : أخبار الحكماء ١٣ .

وسار الأيوبيون خلفاء صلاح الدين على نفس سيرته ، فأسسوا المدارس وأكثروا منها وانتقوا لها أنْفَس المخطوطات وأصَحَّها ، فعندما جَدَّد الملك المُعَظَّم عيسى ، المتوفى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م المدرسة الغَزَالية - نسبة إلى الإمام أبي حامد الغزالي - وجعلها زاويةً لإقراء القرآن والاشتغال بالنحو ، وَقَفَ عليها كُتُبًا ، من جملتها نسخة من « إصلاح المنطق » ، لابن السكيت ، اطَّلَع مجير الدين الحنبلي ، المتوفى عام ١٥٢٠م على كراسة منه ، بخط الإمام النحوي الكبير ابن الخَشّاب ، وعلى ظهر الكراسة الوَقْف ، وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م [١] .

وفي العصر المملوكي زاد عددُ المدارس التي أنشأها المماليك ، سواء في مصر أو في بلد الشام بما فيها فلسطين ، وبَلَغ عدد المدارس التي أنشأها المماليك في فلسطين نحو ثمانين مدرسة ، كان بكل منها خزانة كتب .

وامتلك الأفراد كذلك خزائن هامة للكتب ، فقد وُجد في فهرس مجموعة الوثائق الإسلامية المحفوظة في المتحف الإسلامي بالحرم القدسي الشريف سبع وثلاثون وثيقة ، تتعلَّق بشخص يُدعى برهان الدين إبراهيم بن زين الدين رزق الله الناصري ، لم تذكر عنه كتب التراجم المعاصرة أي شيء . ومن بين هذه الوثائق وثيقةٌ مؤرخة في شعبان عام ٧٩٠هـ/ أغسطس عام ١٣٨٨م ، تشتمل على «مفردات الأسماء المباعة من تركة المرحوم برهان الدين الناصري ، المتوفى إلى رحمة الله تعالى قبل تاريخه» ، ومن بين ١٥٣ بندًا تشتمل عليها القائمة ، يوجد ١٣٨ كتابًا ، سُجِّل أمام كلٍّ منها القيمة التي دُفعت فيه ، من بينها كتابان لمؤرخ صلاح الدين ، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شَدَّاد ، المتوفى بحلب عام ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م : « دلائل الأحكام » ، و « النَّوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية » ،

(١) الحنبلي : الأنس الجليل ٣٨٦ .

وربما كانت هذه النسخة المحفوظة الآن في مكتبة المسجد الأقصى بالقدس الشريف، تحت رقم ٥٩٥ سير وتاريخ (المصورة في معهد المخطوطات برقم ١٢٩٦ تاريخ) ، وهي نسخة كتبت عام ٦٢٦هـ في حياة المؤلف ، و « مُشْكل الصحيحين » ، لصلاح الدين خليل بن كَيْكَلْدى ، المتوفى عام ٧٥٩هـ / ١٣٦٠م الذي أملاه أثناء تدريسه في المدرسة الصلاحية بالقدس بعد عام ٧٣١هـ / ١٣٣١م ، وكتاب «الإيضاح » ، لأبي علي الفارسي[1] .

فهذه المكتبة أنموذج لما كانت عليه مكتبات فلسطين في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وفي العصر العثماني ، وعلى الرغم من نقل العثمانيين للعديد من المخطوطات التي وُجدت في البلاد المفتوحة إلى إستانبول ومكتبات الأناضول ، فقد استمرت البيوتات الفلسطينية في الاحتفاظ بمكتباتها ، كما ساهم عدد كبير من علماء فلسطين ، في إثراء المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الهامة .

ومن بين المخطوطات النادرة التي كانت تحتفظ بها مكتبات فلسطين في ذلك الوقت نسخة نادرة من كتاب « الفهرست » ، لابن النديم ، كانت في مصر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، طالعها مؤرخ مصر الشهير تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي عام ٨١٣هـ ، وسَجَّل عليها بخطه ترجمة موجزة لابن النديم ، جاء في آخرها « وتوفي يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان ، عام ثمانين وثلاث مئة ببغداد ، وقد اتهم بالتشيُّع عفا الله عنه » . ثم أوقف هذه النسخة في عام ١٧٨١م أحمد باشا الجزَّار على المدرسة الأحمدية بجامع عكا بفلسطين ، على أن لا تخرج من الجامع ، ثم استقرَّت هذه النسخة الآن بعد أن انقسمت إلى قسمين : قسمها الأول في مكتبة شستربتي بدبلن ، وقسمها الثاني بمكتبة شهيد علي باشا

(1) Haarmann, U. « The Library of a Fourteenth Century Jerusalem Schalar » , **Der Islam.** 61 (1984) , pp. 327-333 .

بإستانبول رغم أنها كانت مما وَقَفَه قبل ذلك وليّ الدين جار الله على خزائنه التي بناها بجانب جامع السلطان محمد بالقسطنطينية .

وأكثر مجموعات المخطوطات الموجودة في فلسطين الآن مجموعات خاصة أو معتمدة على مجموعات خاصة ، أصبح جزءٌ منها لبَّ مكتبات المؤسسات الإسلامية ، مثل المشهد الإبراهيمي في الخليل ، والمسجد الأقصى في القدس .

وتمتلك المكتبة الخالدية بالقدس « دفاتر » عديدة ، تحتوي على أسماء عدد من مكتبات العائلات الفلسطينية المقدسية بصفة خاصة منذ أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ، وتمتد حتى مطلع القرن العشرين ، وهي تمثل بمفرداتها ، ومخطوطاتها النادرة ملمحًا من الملامح الهامة في مكتبات البلد .

ونتيجة لنزوح العديد من الفلسطينيين من ديارهم في أعقاب كارثة عام ١٩٤٨ ، فقد اختفى العديد من هذه المكتبات ، ولم يبق لها أي أثر ، مثل مكتبة حسن صدقي الدجاني ، ومكتبة عائلة جار الله ، ومكتبة عبد الله مخلص ، وكل هذه المكتبات كانت في القدس ، ومكتبة سعيد الكرمللي في طولكرم .

وتتوزَّع خزائن المخطوطات في فلسطين اليوم على مدنها الرئيسة : جنين ، حيفا ، الخليل ، عكّا ، القدس الشريف ، نابُلُس ، يافا . غير أن أهم هذه الخزائن هي الخزائن الموجودة في القدس الشريف ، والتي يقرب عددها من العشر ، أهمها وأكثرها مخطوطات : دار كتب المسجد الأقصى ، ودار كتب آل الخالدي .

واهتم بالتعريف بمخطوطات فلسطين عدد من العلماء والباحثين ، يأتي في مقدمتهم العلامة عبد الله بن محمد بن عبد الله مُخْلص[1] ، مدير الأوقاف الإسلامية بالقدس ، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، المتوفى عام ١٣٦٧هـ/

---

(١) الزركلي : الأعلام ٤ : ١٣٤ ، ١٣٥ .

١٩٤٧م، الذي كتب عام ١٩٢٤ مقالاً بعنوان « نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف»، مجلة المجمع العلمي العربي٤ (١٩٢٤)، ٣٦٦-٣٦٩، و ٤٠٩-٤١٣ ؛ والأستاذ محمد عزّة دَرْوَزَة[1] ، المؤرخ الباحث الفلسطيني ، المتوفى عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، الذي كتب في العام نفسه مقالاً عنوانه « وصف بعض المخطوطات في خزانة بيت الجوهري في مدينة نابلس والكتب الموقوفة » ، في مجلة المجمع العلمي العربي ٤ (١٩٢٤) ، ٤٥٣-٤٥٧ ؛ وفي عامَي ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ نشر د. محمد أسعد طَلَس[2]، المتوفى عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م ، مقالاً هامًا بعنوان « دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها » ، في مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠ (١٩٤٥) ، ٢٣٤-٢٤١ ، ٣٤٠-٣٤٧ ، ٤٤٠-٤٤٨ ، ٥٢٨-٥٣٦ ، ٢١ (١٩٤٦) ، ٤٩-٦٠ . وجَمَعَ د. صلاح الدين المنجد هذه المقالات في كتاب نشره عام ١٩٨٢ بعنوان «المخطوطات العربية في فلسطين » ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٨٢ .

وكان من أهم إنجازات معهد المخطوطات العربية ، بالقاهرة ، البعثةُ التي أوفدها عام ١٩٥٣ ؛ لتصوير مخطوطات القدس ، حيث صوَّرت من المكتبات الآتية :

المكتبة الخالدية وملحقاتها ، مكتبة المسجد الأقصى ، متحف الآثار الفلسطيني ، ومن المكتبات الخاصة الآتية : مكتبة دار الخطيب بالقدس ، ومكتبة البُدَيْري بالقدس ، والمكتبة الخليلية ، ومكتبة الفتياني ، ومكتبة محمد طاهر أبو السعود ، ومكتبة الشيخ خليل الخالدي . وظهر من هذه المصورات نحو ٦٠ مخطوطاً في فهارس معهد المخطوطات ، التي صدرت بين عامَي ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ . وهذه المصورات في غاية الأهمية ؛ لأن العديد منها فُقدت أصولُه أو تدهورت حالتها منذ أن صوَّرها المعهد .

---

(١) أباظة والمالح : إتمام الأعلام ٢٥٦ .

(٢) الزركلي : الأعلام ٦ : ٣٣ .

وفي عام ١٩٩٣ صدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن ، في الجزء الثاني من كتاب « المخطوطات الإسلامية في العالم » World Suwey of Islamic Manuscripts II, 561-600 صدر أشملُ مسح لوضع مخطوطات فلسطين، وما نُشر من فهارسها، من إعداد لورنس كونراد، وخضر إبراهيم سلامة.

دار كتب المسجد الأقصى :

كانت تقع في جامع المغاربة ، بالمسجد الأقصى الشريف ، وأشرف عليها مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية ، أسِّست عام ١٩٢٢ ، وبها ٦٦٦ مخطوطًا عربيًا ، فُقد قسمٌ منها في الأحداث التي ألَمّت بالقدس . وأعادت إدارة الأوقاف افتتاحها في عام ١٩٧٦ في المدرسة الأشرفية ، التي بناها السلطان المملوكي الأشْرَف قايتباي ، بعد ترميمها ، وقد أضيفت إليها مجموعة الشيخ محمد الخليلي، المتوفى عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م . وأقدم مخطوطات هذه المكتبة نسخة من كتاب « تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم » ، للخطيب البغدادي ، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ، المتوفى عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٢م ، كتبت في المدرسة السلمية ، بدمشق عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م ؛ ولكن أهم مخطوطاتها نسخة من كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، لبهاء الدين يوسف بن شَدّاد ، كتبت عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ، في حياة المؤلّف ، والنسخة الوحيدة من كتاب « كَشْف الدَّسائس في ترميم الكنائس » ، لتقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي ، المتوفى عام ٧٥٦هـ ، كتبت عام ١٢٦٦هـ .

ووضع خضر إبراهيم سلامة فهرسًا لمخطوطات المكتبة في ثلاثة أجزاء .

خضر إبراهيم سلامة : « فهرس مخطوطات المسجد الأقصى » .
الأول - ويشتمل على ٢١٣ مخطوطًا ، القدس - مجلس الأوقاف العامة ١٩٨٠ .

الثاني - ويشتمل على ٢٢٢ مخطوطًا ، عمّان - مؤسسة آل البيت ١٩٨٣ .

الثالث - ويشتمل على ٢٣١ مخطوطًا، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي١٩٩٦ .

وكان الشيخ محمد بن محمد الخليلي ، مفتي الشافعية ، المتوفى عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م[١] هو أوّل من حَقّق فكرة إيجاد دار كتب عامة في القدس ، كما تنص على ذلك وقفية كتبه ، التي حفظت في تربته بالمدرسة البلدية ، بخط باب السلسلة ، وللأسف الشديد فُقد الكثير من مخطوطات هذه المكتبة ، ولم يبق منها سوى ٣٦٠ مخطوطًا ، وقفها أحد أحفاده في عام ١٩٧٩ على مكتبة المسجد الأقصى . ومن أهم هذه المخطوطات النسخة الوحيدة من كتاب « الرّد على النُّحاة » ، لابن مَضَاء القُرْطُبي ، المتوفى عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م ، وهي نسخة نفيسة ، كتبت بقلم نسخ مشكول من خطوط القرن السابع ترجيحًا (مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٧ نحو)، وعلى هذه النسخة اعتمد د. شوقي ضيف في نشر الكتاب .

دار الكتب الخالدية :

وهي أعظم دور كتب القدس ، تقع على يمين الذاهب إلى المسجد الأقصى ، مما يلي خط باب السِّلسلة ، عن يمين المتجه إلى الحرم الشريف . وتحتل المكتبة مكان المدرسة المعروفة باسم بَرَكَة خان [٢] والتي آلت ملكيتها إلى آل الخالدي منذ عدة قرون .

ووُقفت كتب الأسرة الخالدية على المدرسة اعتبارًا من عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، بناءً على وصية السيدة خديجة هانم الخالدي ، ابنة موسى أفندي الخالدي، قاضي عسكر الأناضول ، وقام بتنفيذ وصيتها ولدُها الحاج راغب

---

(١) المرادي : سلك الدرر ٤ : ٩٤ - ٩٧ .

(2) Walls, A.G., «The Turbat Baraka Khan or Khalidi Library» , *Levant* 6 (1974), pp. 25-50 .

أفندي، رئيس المحكمة الشرعية بيافا ، بمعاونة شيخ الشام الشيخ طاهر الجزائري ، وكان حجم هذه المكتبة نحو ١١٥٦ مجلدًا . وأعدَّ لها محمد روحي الخالدي ، وطاهر الجزائري فهرسًا ، نُشر عام ١٩٠٠ بعنوان : « برنامج المكتبة الخالدية العمومية» ، القدس - جورجي حبيب حنانيا ١٩٠٠ ، (وأعاد نشره في عمّان عام ١٩٨٠ عادل حسين الخالدي ، وراغب حسن الخالدي) . وجاء في مقدمة هذا الفهرس أنهم وضعوا بالمكتبة كمية وافرة مما وُجد عندهم من بقية كتب آبائهم وأجدادهم ، رحمهم الله ، وأضافوا إليها بعضًا من الكتب الموجودة عندهم أيضًا ، وجعلوا الغرفة الرحبة التي شَيَّدوها على جادة باب السلسلة في القدس الشريف دار علوم عمومية لمن يرغب في المطالعة ، وشرطوا ألايخرج منها كتاب حرصًا على المنفعة العامة .

وفي الفترة التالية جُمع إلى مخطوطات هذه المكتبة كتب خزائن أخرى لبني الخالدي هم : يوسف ضياء باشا ، ومحمد روحي بك ، وأحمد بدوي بك ، ونظيف بك ، إضافة إلى المخطوطات النفيسة التي جمعها الشيخ خليل أفندي الخالدي ، المتوفى عام ١٩٤١م .

ومن نوادر مخطوطات المكتبة الخالدية :

- النسخة الوحيدة من كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ، لتاج الرئاسة أبي القاسم علي بن منجب بن الصَّيرفي ، المتوفى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ، كتبت بخط نسخ قديم ، من خطوط القرن السادس الهجري (مصورة في معهد المخطوطات برقم ٨٩٠ تاريخ) . وعلى هذه النسخة نشر عبد الله مخلص الكتاب في القاهرة عام ١٩٢٥ ، كما أُعيد نشر الكتاب على النسخة نفسها مع كتاب «القانون في ديوان الرسائل » للمؤلف نفسه ، في القاهرة عام ١٩٩٠ .

- « مجموعة » مسودة ، بخط تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي ، كتبها بين عامي ٧٤١ ، ٧٤٩هـ .

- « قصص الأنبياء » ، لأحمد بن محمد بن عمر بن أبي عدسة القدسي ، بخط المؤلف عام ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م

- « الكياسة في أحكام السياسة » ، ليوسف بن محسن بن أحمد بن الصيداوي، بخطه عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م .

- الجزء الأول من « جلاء الأفكار في سيرة المختار » ، لمحمد بن إبراهيم البلبيسي ، بخط المؤلف عام ٩٨٦ هـ / ١٥٢٠م .

- « منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر (صلاح الدين) » ، لعبد المنعم بن عمر بن الحسن الجُلْياني ، نسخة خزائنية ، كتبت عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م [١] .

- نسخة نادرة من كتاب « شاناق في السموم والترياق » ، للطبيب الهندي كاناكبا ، منقولة إلى العربية من اللغتين : البهلوية ، والسريانية ، وهي نسخة خزائنية مزينة بالرسوم ، كانت ضمن مكتبة السلطان أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، المتوفى عام ٦٠٧ هـ/ ١٢١١م .

---

(١) راجع عنها عبد الله مخلص « كتاب منادح الممادح »، مجلة المجمع العلمي العربي، بدمشق ٩ (١٩٢٩)، ٢٣٦، ٢٣٩ .

مكتبة أسرة البدَيْري :

أسَّسها محمد بن بُدير بن محمد ، المعروف بابن حُبيش ، المتوفى عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ، وهي تشتمل على ٦٣٦ مخطوطًا عربيًّا ، موجودة الآن في الزاوية الوفائية ، خارج باب الناظر ، بالحرم الشريف .

وأقدم مخطوطات هذه المكتبة نسخة مزينة من «الرسالة القُشَيْرية» ، لعبد الكريم ابن هوازن القُشَيْري ، كتبت عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م .

راجع ، خضر إبراهيم سلامة : « فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ محمد ابن حبيش) » ، القدس - مجلس الأوقاف الإسلامي ١٩٨٧ .

* * *

تعقيبات ومداخلات

■ د. عادل سليمان جمال :

فُتنت بالمخطوطات أثناء الطلب ، منذ أربعين عاماً ، وتجولت كثيراً في مكتبات أوربا ، وجمعت كثيراً من المخطوطات ، وكثيراً من المعلومات عنها ، ثم تفرغتُ للدراسات الأدبية ، وإن كانت كلها نشراً للمخطوطات القديمة ، وكنت على صلة بها إلى حد ما ، إلى أن تجددت هذه الصلة بدعوتي الكريمة من د. أحمد يوسف ، وأخي د. فيصل ، فأعادا شيئاً اندثر في نفسي ، ولكنه الآن بُعث حيّاً ، فلا يكاد يمضي عدد من أعداد مجلة المعهد حتى أكتب فيه شيئاً عن حبي القديم للمخطوطات، وأنا بذلك مدين للدكتور أحمد يوسف ، وأخي د. فيصل ، ومدين قبل كل هذا للدكتور حسين نصار ، الذي تمرنتُ على يديه في دار الكتب المصرية على قراءة المخطوطات ، وذلك قبل أن أعرفه مدرساً في محاضرات الجامعة .

أبدأ بتعليقين عامين : الأول أذكر فيه كتاب إدوارد سعيد عن الاستشراق ، الذي صدر عام ١٩٦٨ بالإنجليزية ، وتُرجم إلى العربيةعدة مرات .

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة في العالم الغربي ، وخاصة أميركا ، حيث نُشر ، وفي عام ١٩٨٨ عُقد مؤتمر كبير حول الكتاب وأثره بعد عشرين عامًا من ظهوره . وهو كتاب في غاية الأهمية ، ولا أعرف إلى أي مدى استفدنا به في العالم العربي .

وهناك كتابان آخران لا أجد لهما ذكراً كثيراً ، ويجب أن يكونا بمرأى وبمسمع منا، وهما كتابا أستاذنا المرحوم محمود شاكر ، « أباطيل وأسمار » ، و « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » ، وقد أبان فيهما عن مدى خطورة الثقافة في هدم الأمة من الداخل ، وكونها أشد فتكاً من الحرب .

أما التعليق الثاني العام ، فهو أن أي كلام عن المكتبة الخالدية ، لابد أن يشار فيه إلى طاهر الجزائري - رحمه الله - فقد كان له دور في إنشائها .

أما بحث أ. خضر ، فقد قَدَّم لنا تقريراً مفصّلاً عما دار ويدور في مكتبات فلسطين ، وقد استرعت نظري قلة الدراسات عن المخطوطات في فلسطين قبل العهد المملوكي .

د. أيمن ذكر أن هناك كتاباً كُتب قبل العصر المملوكي ، كما نبهنا د. نبهان إلى أنه كان هناك مكتبة شيعية ، ومعنى هذا أن الفاطميين هم الذين أسسوها قبل المماليك ، هذه المكتبة حُرقت في القدس .

وأتمنى أن يتجرد الباحثون في هذا المجال للنظر في كتب مكتبة فلسطين قبل هذا العهد ، أي قبل العهد الفاطمي ، فلا شك أن مكتبات فلسطين كانت تحتوي كتباً ومخطوطات ومصاحف .

نقطة أخرى أريد أن أستفسر عنها ، تتعلق بمكتبة البُديري ، التي ذكر أنها نُسفت في عام ١٩٤٨ خلال الحرب ، فقد ذكر بعض الباحثين أن بعض مخطوطاتها موجودة ، واطلعوا عليها ، فكيف أوفق بين الأمرين ؟

أثار كلٌّ من د. نبهان ، و د. أيمن نقطة هامة جدًا ، ولمسها أ. خضر ، وهي محاولة إيجاد خطة شاملة للحصول على المخطوطات التي انتُهبَت من فلسطين .

أعتقد أن هذه مسؤولية قومية ، يجب أن تتبناها الجامعة العربية ، كما يجب أن تُعاد هذه المخطوطات إن أمكن . وإن لم يمكن فإن تصويرها والاحتفاظ بها أضعف الإيمان ، خاصة أن هناك خمس مئة مخطوطة نادرة - على الأقل - موجودة عند المنتهبين .

وأعود إلى د. أيمن ، فأقول : إن العرض الذي قُدم لنا عرض طيب ، وقد سرَّني ذكره لبعض نوادر المخطوطات ونفائسها الموجودة في فلسطين ؛ لأني في ما قرأت حتى الآن - وقد تكون قراءتي قاصرة - لا أجد مَنْ ذكر بعض هذه

النفائس، فثمة انطباع أن أكثر المخطوطات في فلسطين من العصر العثماني المتأخر، وما ذكره د. أيمن يعود إلى القرن الخامس، والقرن السادس، والقرن السابع، على أكثر تقدير، وبعضه كُتب في حياة المؤلف، مثل (النوادر السلطانية).

إن هذه المعلومات بالنسبة لي - على الأقل - معلومات جديدة.

■ أ. أسامة النقشبندي:

أعتقد أن كل المخطوطات في خزائن فلسطين ذات أهمية كبيرة؛ لأنها وثيقة لا تقبل الشك في الجذور الحضارية للثقافة العربية والإسلامية في فلسطين. إنها بمثابة الهوية لكل مدينة فلسطينية، ولكل من ينتسب إليها من العلماء الأعلام، سواء كانوا من أبنائها، أو ممن رحل إليها، شأنها في ذلك شأن الحواضر العربية، مثل بغداد، ودمشق، والقاهرة، والبصرة، وغيرها.

لقد تعرضت المخطوطات للسرقة منذ طلائع الاستعمار في القرن السابع عشر الميلادي، متمثلة في الدارسين الأجانب، والرحالة والمنقبين عن الآثار، كل هؤلاء سرقوا كميات كبيرة من المخطوطات من كل الوطن العربي، ومنه فلسطين. وهذا ما يفسر لنا اختفاء عدد لا بأس به من تلك المجاميع الضخمة التي كانت قبل القرن السابع عشر، أو الثامن عشر.

ونعرف من التاريخ أن الأجانب الغزاة عَبْرَ التاريخ حتى الاستعمار الحديث إنما عملوا على بتر الجذور الحضارية للأمة.

المغول أحرقوا ودمروا ما وجدوه من مخطوطات، وكلنا يعرف كم عدد المخطوطات التي رُميت في نهر دجلة من خزانة المستنصرية فقط، لقد بلغ عدد هذه المخطوطات أربع مائة ألف مخطوطة، وما فعله المغول فعله السلاجقة أيضاً؛ إذ دمروا وأحرقوا دار العلم في بغداد، وكان فيها نوادر أنجزها الخطاطون والأعلام

في بغداد، وفي بيت الحكمة، وفي دور العلم، مما أدى إلى ضياع أصول هذه النوادر، فلم يصل إلينا منها إلا نسخ حديثة.

وتكررت المأساة عند قدوم طلائع الاستعمار؛ إذ حاولت هذه الطلائع أن تستحوذ على النتاج الفكري لتستأثر به، وتفيد منه، وفي الوقت نفسه تنسب ما فيه لها، متنكرة لعطاء أمتنا الحضاري.

والحق أن أبناء الأمة كانوا واعين للخطر، فحرصوا على استنساخ المخطوطات، وهذا ما شاهدناه بعد عام ١٢٥٨م، وهو عام غزو المغول لبغداد؛ إذ تم استنساخ الكثير من الأصول التي فُقدت، ووُضعت عشرات ومئات الشروح والحواشي والتعليقات عليها.

وأعود ثانية إلى موضوع فلسطين، فأقول: إن مخطوطاتها تعرضت للسرقة منذ القرن السابع عشر الميلادي، وغداة إقامة الكيان الإسرائيلي والاحتلال والحرب تعرضت هذه المخطوطات أيضاً للدمار والسرقة والنهب. وبعد عام ١٩٦٧ سُرق كثير من المخطوطات، وسمعنا من أحد الأساتذة أن المخطوطات في الجامعة العبرية قد وصلت إلى خمسة آلاف مخطوطة، منها ٥٠٠ مخطوطة نادرة وفريدة، من أين جاءت بها؟ ومن أين جاءت مكتبة الكونجرس، ومكتبة وزارة الدفاع الأميركية بما لديها من مخطوطات.

والسؤال الآخر: لماذا لم تنشر الجامعة العبرية فهارسها؟ هل هو خوف من أن تنكشف السرقة والاستيلاء؟!

لقد اطلعتُ على بعض الفهارس الصادرة عن مخطوطات فلسطين، فوجدتُ أن معظم المخطوطات إلا قليلاً منها مخطوطات بسيطة واعتيادية ورسائل حديثة في المنطق والفلسفة واللغة والنحو والصرف، وكانت تستنسخ منها عشرات النسخ لطلاب العلم، أي أنها لا قيمة لها، سواء من الناحية العلمية أو التاريخية إلا بعض

المخطوطات التي ذكرها د. أيمن فؤاد سيد ، كما أن هناك مجاميع من المخطوطات التركية ، يظهر أنه لم تكن لها أهمية ؛ كي تنقل إلى الجامعة العبرية .

إنني أدعو إلى الحفاظ على التراث المخطوط في فلسطين عن طريق :

- إعداد فهرس شامل لكل المخطوطات الموجودة في فلسطين ، سواء التي صدرت لها فهارس أو الموجودة لدى العائلات . وأعتقد أن المخطوطات التي صدرت لها فهارس لا تتجاوز ألفي مخطوطة ، ولعل أضعاف هذا العدد لدى العائلات والأشخاص .

- إعداد فهرس شامل لما أنجز علماء فلسطين في التاريخ العربي الإسلامي في مختلف العلوم والمعارف ، وهو تأكيد على دور فلسطين في الحضارة العربية الإسلامية ، وما أضافوه إليها ، وكلنا يعرف عبد الغني النابلسي ، وإسماعيل النابلسي ، ونعرف المقدسيين ، ولكن هناك معلومات كثيرة جداً تخفى حتى على من يعمل في هذا الميدان .

■ أ. خضر سلامة :

إن تصوير كل المخطوطات العربية من كل مكان في العالم مسألة صعبة وطويلة ومعقدة ، وإن كان هذا لا يمنع من أن يضع المعهد خطة شاملة لها ، ولكنني أرى أن من الواجب علينا أن نسارع إلى تصوير المخطوطات العربية في البلاد التي تتهددها الأخطار ، وفي مقدمتها فلسطين ، ومن الواجب أيضًا التنسيق بين معهد المخطوطات والدكتور البخيت ؛ للحصول على نسخ من المخطوطات التي تم تصويرها في فلسطين ، مما يوفر المال والجهد .

ولقد ورد ذكر المخطوطات العثمانية ، والحق أن هناك مخطوطات كثيرة في فلسطين تعود إلى تلك الفترة ، ولا يقلل هذا من قيمة هذه المخطوطات ، فهي

تعطينا صورة للحياة بكل أبعادها في ذلك العصر ، هذه الصورة قد لا نجدها في مكان آخر ، بل إن هناك بعض الشخصيات الشهيرة ، كالشيخ محمد الخليلي ، والشيخ البديري ، هذان الشيخان لا نعرف عنهما شيئًا إلا بالرجوع إلى ما كتب في ذلك العصر العثماني ، الذي يعده كثيرون عصراً مليئًا بالظلام والخرافات .

■ **د. أحمد يوسف أحمد محمد :**

ثمة مشكلة حقيقية ، هي غياب الإدراك والوعي بتردِّي الحالة التي وصلت إليها المخطوطات العربية في كثير من المواطن الموجودة بها ، ولو وُجد هذا الإدراك والوعي لدى المعنيين بهذا التراث ، لتغيرت أمور كثيرة .

وثمة حديث مطلوب ومشروع حول الخطط الطموحة لإنقاذ التراث ، والبداية بالتصوير . هنا تبرز قضية الميزانية والتمويل ، ولعلكم تعلمون أن الميزانية التقديرية للمنظمة ٨,٥ مليون دولار تقريبًا ، وما يُسدد من هذه الميزانية التقديرية يتأرجح بين ٤ و ٥ ملايين دولار ، تنفق المنظمة هذه الملايين على كافة أوجه النشاط التي تقوم بها، وما يخص معهد المخطوطات من هذه الأموال ليس سوى ١٥٠ ألف دولار في كل عام ، شاملة رواتب العاملين وتكاليف المرافق . ولولا منحة كريمة من دولة الكويت ، أيام كان مقر المعهد على أرضها ، ننفق منها بشيء من السعة النسبية ، لولا هذه المنحة الكريمة ، والتي كادت تنفد ، لقلّ نشاط المعهد كثيراً .

إن التمويل هو المشكلة الأساسية ، وهو آخذ في التناقص ؛ لأن نسبة سداد الدول لأنصبتها تقل عامًا بعد عام ، وليس ذلك على مستوى المنظمة العربية للتربية فقط ، بل على مستوى كل المؤسسات العربية المشتركة .

أمر آخر هو أن ما هو موجود من أموال لا يُحْسَنُ إنفاقه - على قلته - وهذا في تقديري راجع إلى الفجوة بين دوائر العلم ، ودوائر صنع القرار .

نقطة أخرى تتعلق بالتنسيق ، فالتنسيق غائب بين المنظمات ، والهيئات المعنية بالتراث ، فلو كان هناك تنسيق عربي لما احتاجت فلسطين - مثلاً - إلى إرسال أبنائها إلى إيطاليا ؛ ليتعلموا ترميم المخطوطات ، على الرغم من أن هناك دولاً عربية تستطيع أن تقوم بتدريب هؤلاء ، إما مجاناً ، وإما بنفقات رمزية .

أرى أن استراتيجية الحل يجب أن تكون على النحو التالي :

أولاً : إدراك مدى تفاقم المشكلة ، وهذا ما تقومون به خير قيام .

ثانياً : محاولة تحسين الإنفاق في ما لدينا من ميزانيات ، ونأمل أن تزيد هذه الميزانيات في ما بعد ، وأحب أن أشير إلى أن المعهد قد استأنف نشاط هيئته التي شكلها « الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي » ، وأحسب أن لها دوراً في التنسيق بين الهيئات العربية العاملة في هذا المجال .

■ **د. محمد عدنان البخيت :**

إن للمعهد دوراً كبيراً وجهداً مشكوراً ، لكنه لا يستطيع أن يقوم بكل شيء بمفرده ، كما أن الجانب الرسمي ليس هو الجانب الوحيد المعنيّ بالإنفاق على هذا التراث ، فكأين من جمعية خاصة أو مركز خاص يعمل في هذا المجال بجدٍّ ودأب لما وفر له الله من تمويل كريم ، يستطيع هذا المركز أو هذه الجمعية أن تصل إلى أبعد المكتبات التي تحتوي على مخطوطات عربية .

وهناك مشكلة عانت منها كل جهة علمية في كل بلد عربي ، وجوهر هذه المشكلة فقدان التنسيق ، فإذا كان المقصود أن نصور كل ما كُتب بالعربية أو كتب عن العربية ، ثم نضع هذا الذي صورناه في مكان واحد ، وتطلب منه الأقطار نسخًا ، إذا كان هذا هو المقصود ، فما الذي فعلناه إذن ؟ وما هي الفائدة التي جنيناها ؟

كنت في اجتماع في الكويت في منتصف الثمانينيات ، وأُثير هذا الأمر ، واقترحتُ وقتها أن نُرسل نسخة كاملة إلى كل قطر عربي من كل مخطوطة يتم تصويرها ، ولم يأخذوا باقتراحي بحجة أن ذلك يزيد من التكلفة ، فقلت لهم : إن أي بلد عربي يريد نسخة من المخطوطة المصورة يجب أن يتحمل هو نفقات هذه النسخة ، لكنهم لم يأخذوا بكلامي أيضًا .

لقد اختلف الأمر الآن بعد ظهور المكتبة الإلكترونية ، والإنترنت ، ومن ثم يمكن تدارك المشكلة بسهولة .

وأختم بالإشارة إلى مجهودات كثيرة تضيع في عمل فهارس لمخطوطات ، هذه المخطوطات فُهرست من قبلُ في بلاد عربية أخرى . ولا تفسير لذلك عندي إلا غياب التنسيق والتعاون بين الجهات المعنية بجمع هذا التراث وتنظيمه .

■ **أ. محمد إبراهيم الشيباني :**

لا يستطيع معهد المخطوطات أن يقوم بكل شيء وحده . لذلك أقترح أن نقوم بجمع تبرعات لخدمة تراث فلسطين ، كما أقترح إنشاء لجنة ، يكون أعضاؤها من كل بلد عربي ، وتجتمع بانتظام .

أما جهاز ترميم المخطوطات ، فإن تكلفته لا تزيد على ألف دولار ، وكان استيراده في السابق يتكلف أكثر من ٢٠ ألف دولار ، ومؤسسة جمعة الماجد تُهدي هذا الجهاز مجانًا إلى المراكز العلمية ، علمًا بأن هذا الجهاز خاص بالمخطوطات التي لا تسيل أحبارها .

بقي سؤال ، وهو : لماذا لا نتوجه إلى الأثرياء ليقوموا بالإنفاق على مثل هذه المشروعات ؟

■ **د. عبد الحميد مدكور:**

أبدأ بالشكر لكل من تقدم ببحث أو تعقيب ، وأخص الورقة التي قدمها د. أيمن فؤاد سيد ؛ لأنها رجعت إلى المصادر ، وتتبعت تاريخ تلك المخطوطات ، وهذا لا يقلل من شأن الأوراق الأخرى التي أشعرتنا بالمحنة الكبرى التي يعيشها التراث العربي ، وهي محنة ثقافية لابد من مواجهتها ، والابتداء بحلها .

ولدي بعض الملاحظات ، أود تسجيلها :

أولاً : تمتلك إسرائيل خمسة آلاف مخطوطة ، منها ٥٠٠ مخطوطة من النوادر ، في حين إن الموجود في مكتبة المسجد الأقصى ألفا مخطوطة فقط .

ثانياً :لدينا في دار الكتب أربعة آلاف بردية ، وفي النمسا ١٠٠ ألف بردية مصرية .

ثالثاً :العاملون في المكتبات لا يسمحون للباحثين برؤية المخطوطات ، فخيرٌ عندهم أن تأكل المخطوطة الأرضةُ من أن يراها ويستفيد منها أحد الباحثين .

رابعاً :المسؤولون لا يدركون قيمة التراث وما يعانيه .

خامساً :الذين يعملون في هذا المجال مختلفون : بماذا نبدأ ؟ وكيف نبدأ ؟ وكل هذه أشياء تحتاج منا إلى الحسم ؛ لكي نستطيع أن نبدأ بداية صحيحة .

وختامًا أقول : إن المخطوطات التي تتحدث عن فلسطين هي مخطوطات قليلة، وبخاصة المخطوطات التي تخص المسجد الأقصى ، وأسأل : ما هو سبب هذه القلة ؟

■ **أ. مي الشافعي :**

أرجو أن تتقبلوا كلامي بوصفي إعلامية مهتمة بأمور التراث ، وخاصة تراث فلسطين .

كنت أود من أ. خضر سلامة أن يُقدم لنا مشروعًا واضح المعالم، يُبين لنا فيه ما تحتاجه المخطوطات الفلسطينية، وما يريده من هذا الاجتماع، وما هي الأولويات عنده، فهو أكثر دراية بالموقف هناك في فلسطين.

كما أرجو الاهتمام بالجانب الإعلامي، فقد كان يمكن أن تكون هناك تغطية إعلامية أكبر لندوتكم هذه، خصوصًا في ظل هذه الظروف الراهنة، التي تمر بها فلسطين خاصة، والعرب كلهم بصورة عامة.

وأقترح إنشاء جمعية أهلية لخدمة تراث فلسطين، تقوم بجمع التبرعات للإنفاق على المشروعات التي تخدم التراث العربي في فلسطين، وتكون ضمن الشبكة العربية للجمعيات الأهلية.

■ **د. عادل سليمان جمال:**

أثار أ. أسامة النقشبندي سؤالاً عن كيفية وصول المخطوطات العربية إلى أوربا، وأشير في هذا الصدد إلى مقالة نشرتها منذ أعوام، في مجلة المعهد، عن جهود المستشرقين ومناهجهم في فهرسة المخطوطات العربية. هذه المقالة تربو على الستين صفحة، وقد أوضحت فيها كيف وصلتْ هذه المخطوطات إلى أوربا. وإذا كنا نلتمس العذر لأنفسنا في حالة قيام دول مثل إيطاليا، وفرنسا، وإنجلترا، بحكم التسلط العسكري والاقتصادي، بنهب المخطوطات بالقوة، فإننا لا نستطيع أن نلتمس أي عذر لجهلنا بقيمة هذا التراث، فكثير من المخطوطات تم شراؤها وجمعها من بلاد الشرق الإسلامي المختلفة، ويكفي أن نعرف أن مكتبة مثل مكتبة شستربتي في أيرلندا جمعها صاحبها بهذه الطريقة، فقد كان رجلاً ثريّاً ومغرمًا بالمخطوطات الإسلامية، سواء العربية منها أو الفارسية، وجمع عددًا ضخمًا من هذه المخطوطات، تُعرف الآن باسمه في أيرلندا، ومثل هذا حدث في ألمانيا، على

الرغم من أنها لم تكن ذات نفوذ عسكري في البلاد العربية ، ولكن المسألة كانت مسألة ثقافة قبل كل شيء .

ولقد قمت منذ شهور قليلة بكتابة مقالة طويلة عن فهرس آلورد فقط ، وحللتُ فيها منهج هذا الرجل في فهرسة المخطوطات ، وكيف كان يقوم باقتنائها والحصول عليها .

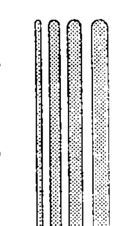
* * *



الجلسة الرابعة

جهود مبكِّرة وتقويم





جهود مبكِّرة في التعريف بمخطوطات فلسطين

أ. عصام محمد الشنطي

■ **د. عبد الله حمد محارب (رئيس الجلسة) :**

نفتتح اليوم الثاني من هذه الندوة المباركة التي أظنها جاءت - مع حسن التدبير - موافقة لما يجري الآن من أحداث في فلسطين ؛ لتلفت الأنظار إلى أننا - معشر المثقفين - مهتمون أيضًا بالذاكرة العربية لهذه الأرض العزيزة .

سنستمع في هذه الجلسة إلى محاضرتين قيّمتين : أولاهما للأستاذ عصام الشنطي ، مدير المعهد الثاني سابقًا ، وخبير المخطوطات ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد ، ويتناول الجهود المبكرة في التعريف بمخطوطات فلسطين . ويتلوه د. يوسف زيدان مستشار التراث بمكتبة الإسكندرية ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد ، بمحاضرة يقوِّم فيها الفهارس الصادرة لهذه المخطوطات .

* * *

(١)

تمهيد :

من البَدَائه أن النظر إلى اللوحة من بعيد يعطي الناظرَ الصورةَ شاملة . ومثلها القرن العشرون الميلادي ، حين ننظر إليه من عَلٍ ، نشاهد صورةَ الاهتمام بالمخطوطات العربية في فلسطين جلية بيِّنة . ومن ثَمَّ يمكننا تقسيم القرن إلى ثلاث فترات زمنية واضحة المعالم .

أُولاها : هذه الفترة المبكِّرة التي تحمل عنوان هذا المبحث ومجاله . وهي الفترة التي سأُوليها العناية الكافية .

وثانيتها : الهجمة الصهيونية لاحتلال فلسطين على مرحلتين : الأُولى طرد سكانها العرب ، وإعلان دولتهم ، عام ١٩٤٨م ، القائمة على العنصرية ، والتفوق العسكري ، ودعم أقوى الدول الأجنبية . والثانية احتلال بقية فلسطين ، وأجزاء

من الدول العربية المجاورة عام ١٩٦٧م ، وما صاحب هاتين المرحلتين من نهب الممتلكات ، أو تخريبها . ونخصّ بالذكر هنا الممتلكات الثقافية ، والمخطوطات العربية في المكتبات ، عامِّها وخاصِّها .

وثالثتها : صحوة الفلسطينيين ويقظتهم من أثر هذه الضربات القاصمة والمتلاحقة التي أودت ببلادهم وأوطانهم ، ومزّقتهم شرَّ ممزَّق ، فأخذوا يعيدون حساباتهم ، ويرتّبون أولوياتهم ، وينظمون خطوط دفاعاتهم ، وينشطون في مختلف المجالات . ومن أهمها خط الدفاع الأول ، وهو الاهتمام بالتراث العربي المخطوط ، والتعريف به ، ذلك أنه وَقَر في نفوسهم أن هذا التراث ذاكرة الأمة التاريخية والوطنية ، وأن العمل للحاضر والمستقبل منبثق من الثقة بالماضي ، وقتله بحثاً ودرساً .

وليس من همنا التفصيل في ما شهدته هذه الفترة من نشاط ، فهذا موضوع بحث أُسند - في ما أعلم - إلى باحث يتقدم به إلى هذه الندوة .

ولكنني أستطيع أن أُجمل ماصدر في هذه الفترة من تعريف بالمخطوطات ؛ لأُدلّل على هذه الصحوة الفلسطينية التي أزعمها . لقد أمكنني أن أُحصي عدد فهارس المخطوطات التي صدرت في هذه الآونة ، فوجدتها نحو أربعة عشر فهرساً ، منها ما يكشف عن مخطوطات فلسطين المحتلة ، وعلى وجه التحديد في مدينتين أسيرتين ، هما يافا وعكّا . والباقي يكشف عن مخطوطات في مكتبات عامّة وخاصّة ، في منطقة نفوذ السلطة الوطنية الفلسطينية .

وجميع هذه الفهارس صدرت مابين عامَي ١٤٠١ - ١٤١٦هـ / ١٩٨٠ - ١٩٩٦م . ووَصفتْ ستةُ فهارس منها نحو ١٢٩٩ مخطوطة ، لا عنواناً ؛ لأن هذا العدد الذي أحصيته يتضمن مجاميع عدة ، ووثائق كثيرة .

*

ومهما يكن الأمر ، فإننا حين نعود إلى ساحة بحثنا هذا ، وقبل الخوض في تفصيلاته ، لا بدَّ من التنويه إلى أمرين : الأول منهما ، أن الساحة التي سوف يجول فيها هذا البحث هي النصف الأول من القرن العشرين الميلادي ، وربما تتسع الرقعة قليلاً ، فتمتد إلى أواخر القرن التاسع عشر . ذلك أن النشاط الثقافي الذي صاحب القرن التاسع عشر ، وما قبله ، نشأ في عهده مكتبات عديدة ، كالمكتبة الأحمدية في جامع أحمد باشا الجَزَّار في عكّا عام ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م ، ومكتبة يافا الإسلامية في جامع يافا الكبير عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م ، والمكتبة الخالدية بالقدس عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ، ثم مكتبة في غَزَّة ، أسسها المفتي محيي الدين الحسيني في حيّ الدرج من المدينة . وتبع هذه المكتبات مكتبات عائلية خاصة ، نشأت في القرن العشرين الميلادي ، كالبديرية وآل الخطيب وجار الله وقُطِّينة وأبي السعود في القدس . وفي نابلس مكتبات آل الجوهري والتميمي وهاشم وعاشور والبسطامي[1] .

والثاني ، أننا سوف نعرض هذه الجهود ممثَّلَة في الأشخاص الذين قاموا بها ، مبتدئين بالأقدم تاريخاً ، ثم بالقديم ، وما تلاه ، عارضين لجهود كلٍّ منهم ، ومحلّلين هذه الجهود ، ومقيِّميها ، ومبيِّنين أهميتها وأثرها في مجال الاعتناء بالمخطوطات ، والتعريف بها .

(٢)

طاهر الجزائري[2] :

دمشقي ، من أصل جزائري ، ورائد النهضة الفكرية الحديثة في بلاد الشام ، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية اليوم) .

(١) مخطوطات فلسطين - واقع وطموح ، ص ٣٥ - ٣٦ .
(٢) متوفى ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م - ترجمته في : المعاصرون ٢٦٨ - ٢٧٨ ، والأعلام ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ ، والأعلام الشرقية ١/ ٣١٦-٣١٨ ، ومعجم المؤلفين ٢/ ١١ - ١٢ .

اهتم بالمخطوطات العربية ، وكان كلفاً - منذ صغره - باقتنائها ، وعرف الأصيل منها والنادر ، كما عرف أماكنها في الخزائن الشرقية والغربية ، ساعده في إتقان ذلك قوة حافظة ، وسعة تجربة . وإليه يرجع الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية بدمشق ، عام ١٢٩٦هـ ، وقد أصبح - في ما بعد - مديراً لها . لقد جمع فيها ما كان مبعثراً من الكتب والمخطوطات في المساجد والمدارس ودور الدمشقيين ، وغيرهم من أهالي بلاد الشام . وتذكر المصادر أنه نقل بعض مخطوطات خزانة آل الموقِّت بالقدس إليها[١] .

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق ثمانية وعشرون دفتراً بخطِّه ، منها ما هو تراجم ، ومذكرات وفوائد تاريخية ، وأسماء مخطوطات مما رآه أو قرأ عنه[٢] .

وهو من أقدم مَنْ بحث في المخطوطات في فلسطين ، فقد امتد نشاطه إليها ، وأولاها العناية الفائقة ، وعرَّف بها . وإليه يرجع الفضل في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس ، وبهذا حفظ هذه المخطوطات من الضياع ، ويَسَّر على طلبة العلم درب البحث والانتفاع بها[٣] .

لقد نشأت المكتبة الخالدية عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ، وهو الذي أعان على إنشائها مع شخصيات فذة من عائلة الخالدي ، في طليعتهم راغب الخالدي ، فأخذت تجمع هذه المخطوطات من بيوتهم ، حتى قامت هذه المكتبة شامخة .

والشيخ طاهر هو الذي وضع أول فهرس ، أو دليل ، بمعونة راغب الخالدي ، وأبي الخير محمد بن محمود الحَبَّال الدمشقي ، بعنوان « برنامج المكتبة الخالدية العمومية » ، وإن خلا من أسماء صانعيه . وطُبع في القدس[٤] في عام

---

(١) مخطوطات فلسطين - واقع وطموح ، ص ٦٠ .
(٢) الأعلام ٣/ ٢٢٢ .
(٣) الكشكول الصغير ، ص ٧٤ .
(٤) في مطبعة جورجي حبيب حنانيا . وأُعيد طبعه في عَمَّان ، مطبعة الشرق ومكتبتها ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

تأسيس المكتبة ، وجاء في ٧٨ صفحة من القَطْع العادي (متوسط) . واحتوى على ذكر مخطوطاتها في وقته. أما ما أُضيف إليها ، في ما بعد ، من مخطوطات أفراد آخرين من العائلة ، فله فهرس خطيّ غير مطبوع .

(٢)

عبد الله مُخلِص[١] :

كان أبوه من ضباط الجيش العثماني ، جاء به ، وهو طفل ، إلى فلسطين ، ونشأ في مدينة «جينين». كما تعلّم في مدينة « حيفا » ، وأقام مدة في مدينتَيْ صَفَد وعكّا . وكان في القدس مديراً للأوقاف الإسلامية . ولا شك في أنه أفاد كثيراً بإقامته في أكثر من مدينة فلسطينية ، خاصة القدس وعكّا ، فقد اطلع على مخطوطاتهما ، وكتب عنها ، وعرّف بها . وقد ترك مكتبة نفيسة ، فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف مجلد ، منها مئة وعشر مخطوطات ، وَصَفَ بعضها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . وقد ضاعت هذه المكتبة حين نسف الصهاينة ، عام ١٩٤٨م ، الدَّيْرَ الذي نُقلت إليه .

وكان مخلص من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق . وامتد نشاطه إلى الدراسات، وتحقيق النصوص ، ونشر البحوث في التعريف بمخطوطات فلسطين .

كان موهوباً في اكتشاف نوادر المخطوطات ونفائسها . ففي عام ١٩٣٠م نشر بحثاً في مجلة المجمع[٢] ، نبّه فيه إلى مجموعة نادرة من المخطوطات ، منها نسخة وحيدة ليس لها ثانية في العالم ، وهي مخطوطة فضائل البيت المُقَدَّس ، لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي ، المحفوظة في مكتبة جامع أحمد باشا الجَزَّار في عكّا .

---

(١) متوفى ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م - ترجمته في الأعلام ٤/ ١٣٤ - ١٣٥ ، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٨٦ .

(٢) المجلد ١٠ ، ص ٥٧٧ ، بعنوان : مجموع نادر .

وحين كشف عن نفاستها ، بادرت دار الكتب المصرية بتصويرها عام ١٩٣٢م ، مع ما صاحبها من رسائل في المجموع [١] . وامتدت يد الجامعة العبرية إليها - في ما بعد - ونقلتها من مكانها الشرعي إلى ذلك المكان الغريب [٢] .

والحق أن جهود مخلص لم تقتصر على هذا البحث ، بل امتدت بحوثه إلى كثير من مخطوطات فلسطين ، يعرِّف بها ويكشف عنها ، ويشير إلى قيمتها . وتزخر أعداد مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بهذه البحوث القيِّمة .

ومن أشهرها ما توجَّه فيه إلى مكتبة مشهورة في القدس ، في وقت مبكر [٣] ، كشف فيه عن نفائسها ، وهي المكتبة الخالدية ، التي كنا قد أتينا على ذكرها حين تحدثنا عن إنشائها عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م بفضل طاهر الجزائري . وكان مخلص قد زارها عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م ، ورأى لزاماً عليه أن يكشف عن ذخائرها ، بعد أن لاحظ أن أحداً لم يتعرض لذكرها .

على أنه أشار إلى مَن ذكر هذه المكتبة من قبله ، وهو عيسى إسكندر المعلوف ، عضو المجمع العلمي ، في مقالته « القدس وتواريخها العربية » ، المنشورة في مجلة « المقتبس » ؛ وحبيب الزيات في كتابه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » ، المطبوع في القاهرة ، عام ١٩٠٢م .

اهتم مخلص في بحثه في تحديد موقع هذه المكتبة في المدينة القديمة ، داخل سورها ، على جادَّة باب السلسلة ، الملاصق لساحة البُراق . ويسجل معلومات

---

(١) محفوظة فيها برقم ٧٨١ مجاميع .

(٢) فضائل البيت المُقَدَّس ، ص ١٥ وما بعدها .

(٣) عام ١٩٢٤م في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٤ ، من ص ٣٦٦ - ٣٦٩ ، ٤٠٩ - ٤١٣ . ويعود الفضل إلى د . صلاح الدين المنجد ، الذي جمع هذه البحوث ، وبحوث محمد عزة دروزة ، ومحمد أسعد طَلَس ، في كتابه : المخطوطات العربية في فلسطين .

عن هذه المكتبة ، نعدّها نفيسة ؛ لأنها تعيننا الآن على تقدير ما تعرَّضت له المكتبة في ستينيات القرن من نهب صهيوني . وأشار إلى الفهرس الذي نُشر غداة تأسيسها ، وهي معلومة قيمة عن هذا الفهرس الذي نشر في مطلع القرن العشرين . ويذكر أن المكتبة حين زارها كانت تحتوي على نحو أربعة آلاف مجلد ، ثلثاها من المخطوطات ، والبقية من نوادر المطبوعات .

ويؤصِّل لنا مصادر المكتبة بعد مرحلة التأسيس ، بإضافة خزائن يوسف ضياء الخالدي ، ومحمد روحي الخالدي ، وأحمد بدوي الخالدي . فضلاً عَمَّا أهداه إليها المستعربون من نفائس المطبوعات ، مثل مرجليوث وغيره .

ولم يعجبه هذا المكان المتواضع غير المناسب لهذه المكتبة الجليلة ، فهو مقبرة لبعض قدامى الأمراء المنقوش أسماؤهم على أضرحتهم . كما لم تعجبه خزائن المخطوطات ، ولا نظامها . ومن ثَمَّ يستنهض الفلسطينيين للعناية بها أيَّما عناية .

وشرع في بيان أهم مخطوطاتها النادرة التي رآها بعينيه ، وقلبها بيديه . وقد عَدَّ منها نحو خمسين مخطوطة . ولسنا بصدد سرد ما ذكره منها ، ولكن لنا على ما ذكر بعض الملحوظات المفيدة التي تشير في مجملها إلى عناصر توصيفه لها ، والمسائل التي كان يتوجَّه إليها بالاهتمام .

وأول هذه الملحوظات أنه لم يرتِّب عنواناتها على الحروف الهجائية ، ولم يصنِّفها على الموضوعات . ولكننا نكرر الزَّعْم أنه قلَّب هذه المخطوطات تقليباً جيداً ، غير مكتف بالنظر في أولها وآخرها ، فلم يفته ما مع المخطوطة التي بين يديه من مؤلَّفات أُخرى . وقد سجَّل ذلك في غير موضع .

على أنه من سلبيات عمله هذا أنه كان يكتفي ، في بعض الأحيان ، بذكر المجموع عامة ، وذكر رسالة مهمة منه ، دون بيان بقية الرسائل ، كقوله : مجموع

رسائل لابن كمال باشا ، المتوفى ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م ، منها تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية[١] .

وكان على دراية بالخطوط ، مهتمًا بخطوط العلماء ، كخط تقيّ الدين علي بن عبد الكافي السُّبْكي ، المتوفى ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م . الذي لم يكن ينقط الحروف ليزيل عجمتها ؛ وخط قاضي القضاة العز بن جماعة ، المتوفى ٨١٩ هـ/ ١٤١٦م ، الواضح في نسخة مسوَّدة من تأليفه ، وغيرهما كثير . ويميز بين الخط المغربي والخط الأندلسي ، على دقة الفروق بينهما ، فيقول في موضع : وهو بخط أندلسي صعب القراءة[٢] . كما بلغ من الدراية ما جعله يقدِّر أن هذا الخط من قرن كذا .

ويحاول في ثنايا توصيفه أن يربط أجزاء المخطوطة الواحدة المتفرقة في أكثر من مكان . فهذا هو الجزء الأول من كتاب كذا في المكتبة الخالدية . ويتذكر أن منه سبعة أجزاء في قونية (بتركيا) أشبه بنسخة القدس هذه .

ويحرص على أن يسجل ما كان من المخطوطات في ملكية العلماء ، أو ما عليها من خطوطهم ، أو قراءاتهم ، كجزء من مخطوطة قُرئت على الصدر القونوي ، المتوفى ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م . ويتنبّه إلى الاختلاف في نسبة المخطوطة إلى مؤلِّفها ، فيذكر المؤلِّف كما ورد على المخطوطة ، وأن بعض المصادر والمظانّ نسبتْها إلى مؤلِّف آخر . وحين يذكر مخطوطة ، يرجع إلى بعض المصادر فلا يجدها فيه ، فينصّ على ذلك . وعكس ذلك صحيح ، فحين يجد في بعض المصادر أو الفهارس أو الدفاتر أو البطاقات نسخة أخرى غير التي بين يديه يقول : في تلك المكتبة نسخة أخرى منها . ويُفضي هذا التوثيق إلى تعريفنا بالنسخ الفريدة أو النادرة . وحيناً يسترسل فيذكر نسخاً من شروح المخطوطة التي بين يديه ، أو ذيولها وملاحقها ، أو المطبوع منها .

(١) المخطوطات العربية في فلسطين ، ص ٦٨ .

(٢) المخطوطات العربية في فلسطين ، ص ٦٧ .

ويهتم بذكر أجزاء المخطوطة التي يصفها ، وكذلك النص على تمامها أو نقصها ، وما بها من خروم . وبهذا يدلّل على ما زعمناه من أنه كان يوفي تقليب المخطوطة حقَّها .

ويقرأ مخلص مقالة لمحمد عزّة دَرْوَزَة ، الذي سنأتي على ذكره عَمَّا قليل ، يذكر فيها أن شرح الإفصاح للفارقي ، هو لعبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخرجي الريحاني . فيسارع بنشر ما يمكن أن يلحق التراث من تصحيف وتحريف ، فيردّ نسبة الشارح إلى الخزرجي الزنجاني ، ويفصِّل في مؤلفاته وأماكن حفظ بعض نسخها[1] .

ومهما يكن الأمر ، فإن جميع هذه الملحوظات تنمّ عن سعة اطلاع على التراث العربي المخطوط ، وعن دراية عميقة بتوصيف المخطوطات ، والاهتمام بعناصر الفهرسة ، والكشف عن مشكلات التراث بعامة .

(٤)

محمد عِزَّة دَرْوَزَة[2] :

فلسطيني من مدينة نابلس . شغلته في عموم حياته السياسة ، واستغرقته دهاليزها ، حين أحسّ أن وطنه مهدَّد بالضَّيَاع . كما شغلته من جانب آخر الدراسات الإسلامية ذات العمق والأصالة ، وله جهود واجتهادات تُذكر في هذا السبيل .

توجَّه في الثلث الأول من حياته إلى التراث المخطوط ، المحفوظ لدى بعض عائلات مدينته ، من مثل آل الجوهري ، وآل صوفان . فنشر عام ١٩٢٤م[3] كشفاً

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٥ ، لعام ١٩٢٥ ، ص٩٧ - ٩٨ .
(٢) متوفى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م . من المصادر عنه كتاب : محمد عزة دروزة ، لحسين عمر حمادة . وترجمته في ذيل الأعلام ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، وإتمام الأعلام ، ص ٢٥٦ .
(٣) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٤ ، لعام ١٩٢٤ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٧ .

وتوصيفاً لخمس مخطوطات في خزانة آل الجوهري الخاصة ، وتحليلاً لمخطوطة واحدة لدى مكتبة آل صوفان الخاصة .

ويتضح من توصيف دروزة لهذه المخطوطات دقّتُه ، واهتمامُه بالعناصر الأساسية التي تكشف عن قيمة النسخة ونفاستها . وبهذا دلّل على أنه كان يملك أدوات النجاح في هذا المضمار ، رغم أنها أُولى تجاربه . وهكذا خسره التراث العربي المخطوط ، وكسبته السياسة أولاً ، ثم الدراسات الإسلامية في ما بعد .

وحَسْبُ دروزة أنه من أوائل مَن نبّه إلى ما في المكتبات الخاصة بمدينته من نفائس . ومن ثَمَّ نبّه إلى أن التراث المخطوط ليس في المكتبات العامة فحسب ، وإنما هو شائع وكثير في مكتبات خاصة ، وفي مدن أخرى غير بيت المقدس ، مما أوقفه علماؤها على طلبة العلم .

وهو تنبيه أفاد المتخصصين في ما بعد للتوجه إلى تلك المكتبات العائلية ، ونبش ما فيها من تراث مُخَبَّأ ، وكشفه بالفهارس تُصنَع وتُنشَر ، على نحو ما أشرنا مجملاً في المرحلة الثالثة من القرن العشرين الميلادي .

(٥)

محمد كُرْد علي[١] :

دمشقي ، مؤسس أول مجمع عربي ، وهو المجمع العلمي العربي بدمشق ، عام ١٩١٩م ، في عهد الحكومة العربية الأولى في سورية . وهو من تلاميذ طاهر الجزائري ، منشئ المكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الخالدية بالقدس .

اهتم منذ نعومة أظفاره بالتراث العربي المخطوط ، بتشجيع من شيخه طاهر الجزائري ، وحقق ودرس وكشف عن كثير من المخطوطات . ونذكر في هذا المجال

---

(١) المتوفى ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م . ترجمته في الأعلام ٦/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ومعجم المؤلفين ٣/ ٤٠٦ - ٤٠٩ . وانظر : محمد كرد علي ، د. عدنان الخطيب ؛ وشيخ الباحثين محمد كرد علي ، محمد بن إبراهيم الشيباني .

ما حرص على تسجيله في كتابه « خطط الشام » الذي استخرجه من نحو أربع مئة كتاب ، وطُبع في ست مجلدات[1] .

لقد جاء في هذا الكتاب[2] بعض نفائس المكتبة الخالدية بالقدس ، فذكر منها عشر مخطوطات ، هي : أنموذج العلوم لابن حمزة الغفاري ، والطبقات السَّنية لتقي الدين بن عبد القادر التميمي ، والشعور بالعور للصلاح الصفدي ، ومختصر حياة الحيوان لجلال الدين السيوطي ، وقهوة الإنشاء لابن حجة الحموي ، واختصار السيرة النبوية لمحيي الدين بن العربي ، ورونق الحفاظ بمعجم الألفاظ لجمال الدين يوسف ، سبط أحمد بن علي بن حجر ، ومثير الغرام بفضائل القدس والشام لابن سرور المقدسي ، والتِّبيان في إعراب القرآن للعُكْبَري ، ودمية القصر للباخرزي .

ونلاحظ أن كرد علي قد تأثر في اختياره هذا باختيارات عبد الله مخلص ، إلى حدٍّ بعيد ، والتي كنا قد أشرنا إليها في ما مضى . ومهما يكن الأمر ، فلم يكن من همّ كرد علي أن يصف هذه النسخ على نحو ما فعله عبد الله مخلص من قبله ، ومحمد أسعد طَلَس من بعده ، وإنما كان همّه أن ينبّه إلى بعض مخطوطات المكتبة الخالدية بالقدس ، ذات الأصالة والإبداع ، ولم تكن معروفة شائعة لدى كثير من المتخصصين في ذلك الوقت المبكر (١٩٢٨م) . وبهذا دلّ على حسٍّ تراثي يقوده إلى المؤلَّفات النفيسة منها .

(٦)

محمد أسعد طَلَس[3] :

من مدينة حَلَب . حصل على درجة الدكتوراه في الأدب . واشتغل في التراث العربي المخطوط ، دراسة وتحقيقاً وكشفاً . ومن فهارسه فهرس لخزانة

---

(١) في دمشق ، مطبعة المفيد ، ١٩٢٨م .

(٢) ٦/ ٢٠١ ، نقلاً عن مخطوطات فلسطين - واقع وطموح ، ص٤٩ - ٥٠ .

(٣) متوفى ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م - ترجمته في الأعلام ٦/ ٣٣ ، ومعجم المؤلفين ٣/ ١٢٧ .

الأوقاف في بغداد ، نشره بعنوان : الكشّاف عن مخطوطات الأوقاف ، وفهرس لنوادر مخطوطات حَلَب ، الذي طبعه المعهد الفرنسي بدمشق ، ولم يصدر لأسباب سياسية آنذاك . وله مقالات كثيرة عن المخطوطات العربية في مكتبات فلسطين ، وطهران ، ومَشْهَد في إيران .

ويُعَدّ في زمنه بحق من أكثر العلماء عناية بالمخطوطات العربية كمّاً ونوعاً ، وإن سبقه عبد الله مخلص تنقيباً وعمقاً ودراية . لقد نشر طَلَس في عامَيْ ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ خمس مقالات عن نفائس المخطوطات في مكتبات بيت المقدس[١] .

استفتح حديثه فيها عن مخطوطات فلسطين بلمحة تاريخية قيمة عن مدارس القدس ودور كتبها قديماً . وأصَّل النشاط العلمي الذي زخرت به المدينة في عهد صلاح الدين الأيوبي ، الذي خلّصها من الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٤م ، فأسّس المدارس والمعاهد ، وزاد في كتب المسجد الأقصى .

ثم استعرض هذا النشاط في عهد الأيوبيين من بعد صلاح الدين ، ثم عصر المماليك ، الذي أصبح عدد المدارس في عصرهم يربو على الثمانين ، كان في أكثرها خزائن كتب مخطوطة .

واهتم طَلَس بمكتبات بيت المقدس الخاصة والعامة في عهده (عام ١٩٤٥ م) ، ويقرِّر أن عددها يقرب من عشر مكتبات ، أعظمها مكتبة المسجد الأقصى ، والمكتبة الخالدية . ويفصِّل الحديث عن ثمان منها ، وهي : المسجد الأقصى ، الخالدية ، الخليلية ، الفخرية ، آل قُطَّينة الحنبلية ، آل البديري ، عبد الله مخلص ، محمود اللّحام في سلوان ، من ضواحي القدس .

وسجَّل ملاحظاته عن نشأة هذه المكتبات وموقعها من البلدة القديمة ، وتطورها ، ومحتوياتها عموماً ، ومصادر هذه المخطوطات ، وأسماء أُمنائها ،

(١) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٢٠ لعام ١٩٤٥ ، والمجلد ٢١ لعام ١٩٤٦ .

ووصف خزائنها ، الأمر الذي يدلّ على أنه زار هذه المدينة ، ودخل معظم مكتباتها، وقلّب محتوياتها ، كما زار بعض أعلامها ، وبهذا كان شاهد عيان لأوضاع المخطوطات آنذاك .

ومما ذكر مجملاً دون تفصيل خزائن بني أبي اللطف ، والترجمان ، والحسيني، والداودي ، والموقِّت ، ومحمد إسعاف النشاشيبي .

وينتقل إلى ذكر بعض نفائس مخطوطات دار كتب المسجد الأقصى ، فيذكر منها ستاً وعشرين مخطوطة بشيء من التوصيف المنهجي الذي يكفي لمعرفة قيمة هذه النسخ وتميّزها .

ويهتم بفنيّة المخطوطة ، فيذكر نوع ورقها وخطها وعهد كتابتها ، وزخارفها وألوانها . ويولي نسخ المصاحف النفيسة عناية خاصة عند هذا التوصيف الفني .

وينمّ في توصيف ما اختاره منها ، عن اطلاع واسع على التراث العربي ، فهو قادر على أن يضع يده على المؤلَّفات ذات الأصالة ، والنسخ الفريدة أو النفيسة ، مستخدماً تجربته الواسعة ، والمظانّ المُسْعفة . كما كان لديه القدرة العلمية على تصحيح أخطاء بعض الباحثين في التراث .

تثير اهتمامَه نسخةٌ من : تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم ، لأبي بكر الخطيب أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، المتوفى ٤٦٤هـ ، فيقول فيها : « وهي نسخة جدُّ قيِّمة ، صحيحة مضبوطة ، كتبت سنة ٥٧٧هـ . والمعروف من نسخ هذا الكتاب نسختان : الأُولى بدار الكتب المصرية (فهرس كتبخانة ١/ ٢٣٢) ، والثانية بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، رقمها ٣٩٠ حديث ، كما في بروكلمان (الملحق ١/ ٥٦٤ رقم ٦) »[1] .

---

(١) المخطوطات العربية في فلسطين ، ص ١٩ - ٢٠ .

أما نفائس مخطوطات المكتبة الخالدية ، فيذكر منها مئة وثماني . ويسير فيها على النمط من التوصيف الذي سار عليه في اختياراته من دار كتب المسجد الأقصى . ويصنِّف هذه الاختيارات وفق موضوعاتها ، فهذه في التفسير ، وتلك في الحديث ، وغير ذلك .

ونلتفت إلى اهتمامه بمخطوطات بعض العلوم البحتة كالفلك ، وهي من غير الموضوعات التقليدية ، التي أهملنا البحث فيها زمناً . وكذلك يهتم بالمجاميع ، ذاكراً محتويات كل مجموع ، وهو نهج علمي يُحمد عليه في وقته .

(٧)

خاتمة :

وهكذا أمكنني أن أقسم القرن العشرين الميلادي إلى ثلاثة أقسام زمنية واضحة ، موصولة بالتعريف بالمخطوطات العربية في فلسطين . وبيَّنت أن الفترة الأولى المبكِّرة ، والتي وقعت من ذلك القرن في نصفه الأول ، كانت نشطة ووفيرة .

واستعرضتُ الجهود المبذولة ، ورأيتُ كيف أسهم فيها خمسة علماء ، هُم : طاهر الجزائري ، وعبد الله مخلص ، ومحمد عزَّة دَرْوَزَة ، ومحمد كُرْد علي ، ومحمد أسعد طَلَس . وحلّلتُ جهودَ كلٍّ منهم ، ووضعته في موضعه عند التقييم ، وانتهيت إلى أنهم أدّوا الأمانة بجدارة واقتدار .

ولا أزعم أن هذا البحث قد استوفى الجهود جميعها ، فلا نعدم أن نجد جهوداً هنا وهناك ، لم أرَ ضرورة لذكرها . ولعلَّ من أشهر الأمثلة على مَن لم أذكرهم بشيء من البَسْط سعيد الكَرْمِي [1] . وهو فلسطيني من مدينة طول كَرْم ، ومن

(١) المتوفى ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م- ترجمته في الأعلام ٣/ ٩٨ - ٩٩ ، والأعلام الشرقية ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨ ، ٧١٦ - ٧١٧ ، ومعجم المؤلفين ١/ ٧٦٧ .

مؤسسي المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩١٩م . وكان يهتم بالتراث العربي المخطوط . وترك مكتبة تضم نفائس المخطوطات والمطبوعات . وله مقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، أكثرها في اللغة والاجتماع ، وبعضها في التعريف بالمخطوطات ومصنِّفيها .

ولم نذكر أيضاً المستعرب الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي ، المتوفى عام ١٩٥١م ، والذي زار بلادنا سورية ولبنان وفلسطين ومصر . ودخل كثيراً من مكتباتها ، ونبش عدداً وفيراً من مخطوطاتها ، وسجل ذلك في كتابه الممتع « مع المخطوطات العربية »[١] . والعجيب أنه لم يذكر المكتبة الخالدية إلا عابراً ، ولم يذكر من مخطوطاتها شيئاً . قال عنها : « وهناك في القدس ، في مكتبتها المهملة التي تسمى بالخالدية . . . »[٢] . وفي صورة أُلحقت بالكتاب ، والمثبت في أسفلها أنها بتاريخ ١٣ نيسان (إبريل) ١٩١٠م ، أربعة أشخاص كانوا من جلساء كراتشكوفسكي في القدس ، أحدهم جميل الخالدي ، الذي عُرِّف في الصورة بأنه صاحبُ المخطوطات[٣] . وفي موضع آخر[٤] تجوَّل على ضفَّة البحر الميِّت ، وقضى ليلة في دير القديس سابا . وطبيعي ألاَّ يذكر مخطوطات المنطقة التي عثر عليها راعٍ فلسطيني في كهف مهجور ، في قصة ذائعة مشهورة ؛ لأن ذلك كان بعد رحلة كراتشكوفسكي لبلاد المشرق بنحو أربعين عاماً .

وحَسْبي أنني أتيتُ في هذا البحث على ذكر عُظْم هذه الجهود التي مهَّدت السبيل ، وكانت حافزاً لهذا النشاط المكثَّف الذي ظهر في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين .

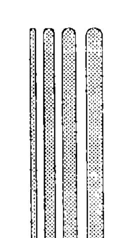
* *

(١) ط . دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٣م .
(٢) مع المخطوطات العربية ، ص ٥٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠ / ٤١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

المصادر والمراجع

- إتمام الأعلام، د. نزار أباظة، ومحمد رياض المالح، دار صادر، بيروت، الط. الأولى، ١٩٩٩م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الط. العاشرة، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢م.
- الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية، زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الط. الثانية، ١٩٩٤م.
- ذيل الأعلام، أحمد العلاونة، دار المنارة، جدَّة، الط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- شيخ الباحثين محمد كرد علي، محمد بن إبراهيم الشيباني، الكويت، الط. الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- فضائل البيت المُقَدَّس، عصام محمد الشَّنْطِي، بحث في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٦/ ١، ٢، القاهرة ١٩٩٢م.
- الكشكول الصغير، محمود الأرناؤوط، دار العروبة بالكويت، ودار ابن العماد ببيروت، الط. الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- محمد عزَّة دَرْوَزَة - نشأته، حياته، مؤلفاته، حسين عمر حمادة، دار قتيبة، دمشق، الط. الثانية، ١٩٨٣م.
- محمد كُرْد علي، د. عدنان الخطيب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- المخطوطات العربية في فلسطين، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الط. الأولى، ١٩٨٢م.
- مخطوطات فلسطين - واقع وطموح (بيت المقدس)، فؤاد عبيد، منشورات مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني، القدس ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- مع المخطوطات العربية، إغناطيوس كراتشكوفسكي، ط. دار التقدم، موسكو، ١٩٦٣م.
- المعاصرون، محمد كُرْد علي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
- معجم المؤلِّفين، عمر رضا كحَّالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الط. الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

❊ ❊ ❊



تقـــويم فهـــارس مخطوطات فلسطين

د. يوسف زيدان

تمهيد :

المتأمل في الخريطة الخطية ، أي البيان الجغرافي لوجود المخطوطات في مدن العـالم ، يلحظ على الفـور أمـوراً ، من أهمـهـا اندثار عـمليـة التـراكم الطبيـعي للمخطوطات ، في مقابل النشاط الواسع لعملية التجميع الصناعي للنسخ الخطية في مواضع بعينها .

والمقصود بالتراكم الطبيعي ، ذلك التزايد الدائم للنسخ الخطية في المواطن التي حفلت على مر الزمان بالمجالس العلمية ، حيث كانت الحركة العلميـة تؤدي بالضرورة إلى نَسْخ الكتب والحرص على جمعها ؛ ومن ثَمَّ تكثر مدوَّنات المتعلمين والمجموعات الخاصة بالعلماء ومقتنيات المساجد القديمة وخزانات الأمراء . . . إلخ ، مما يخلف في نهاية الأمر ثروة تراثية لهذه المدينة أو تلك الناحية ، بحسب ما يناسب عراقتها وطول اشتغالها بالعلم ، وهو ما يعكس في آخر الأمر الشخصية التراثية للمكان .

لكن الشخـصيـات التـراثيـة للمـواضع انطمست ، بسبب ازدياد التـجـميـع الصناعي للمخطوطات ، وهي العملية التي تؤول خلالها المجموعات الخطية من المواطن العريقة إلى المواضع الجديدة التي تمتاز بالغنى أو القدرة السياسية ، في مقابل الضعف الاقتصادي والسياسي لمواطن التراكم الطبيعي للمخطوطات .

ولا شك في أن أكبر عمليات التجميع الصناعي للمخطوطات ، جرت أيام الاستعمار الأوربي للبلاد العربية والإسلامية ، ففي تلك الأيام انتُهبت الخزانات الخطية من مدن الإسلام ، وانتقلت إلى العواصم الأوربية وصالات المزادات ،

والمجموعات الغربية الخاصة ، فكانت حصيلة ذلك الآلاف من المخطوطات العربية الجيدة ، المنتقاة بعناية ، محفوظة حالياً بمكتبات المدن الأوربية[1] .

ثم جاءت الطفرة الاقتصادية للنفط في البلاد العربية (الجديدة) ، متزامنة مع التدهور الاقتصادي والسياسي للبلدان القديمة ، مثل مصر وبلاد الشام ، فكان ذلك سبباً مباشراً في انتقال عشرات الآلاف من النسخ الخطية ، عبر عملية تجميع صناعي عشوائي في أغلب الأحيان ؛ فاحتشدت في العواصم الجديدة مخطوطات ، كانت قبلاً بالمدن العربية القديمة ، ومن ثَمَّ بهتت ملامح الشخصية التراثية لهذه المدن القديمة .

وما سبق ينسحب على عديد من المواطن العربية والإسلامية ، وينطبق أكثر على فلسطين التي جرت عليها الوقائع السابقة ، مقترنة بواقعة أبعد أثراً وأعمق تأثيراً ، هي الاحتلال اليهودي الذي استعلن منذ أكثر من نصف قرن .

مخطوطات فلسطين :

نظراً للموقع الفريد لمنطقة فلسطين التي تُعد الامتداد الجنوبي الغربي لبلاد الشام، والامتداد الشمالي الشرقي لمصر ، وكلتاهما - مصر والشام - من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، ونظراً لعراقة الحواضر الفلسطينية ، وازدهارها في أغلب القرون الماضية ، ونظراً لمكانة القدس (بيت المقدس) في نفوس المسلمين[2] ؛

---

(١) راجع دراستنا : خزائن التراث العربي الإسلامي في أوربا (الفصل الثالث من كتابنا : المتواليات فصول في المتصل التراثي المعاصر - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٨ - ص٩٩ : ١١٧) .

(٢) حظيت القدس والمسجد الأقصى بأوفر عدد من المؤلفات العربية التي أفردت لمدينة إسلامية . وقد أحصى د. كامل العسلي قرابة خمسين مخطوطة ، ألّفها العلماء على مدار قرون الإسلام، وقدَّم عنها دراسة ببليوجرافية مفصَّلة (د . كامل جميل العسلي : مخطوطات فضائل بيت المقدس ، عمان ١٩٨١) .

فقد حفلت المدن والحواضر الفلسطينية بمراكز العلم ، وخرج منها علماء كثيرون ، بما يُفترض معه أن تتراكم بها الألوف من المخطوطات .

بيد أن الظرف التاريخي المعاصر ، أدَّى - ضمن ما أدَّى إليه - إلى ضياع ونهب الثروة الخطية بالديار الفلسطينية ، فلم يبق منها في يومنا هذا غير مجموعات فقيرة لا يتناسب حجمها وتاريخ مدن مثل : القدس ، نابلس ، غزة ، يافا . . . إلخ .

وقد بلغت عملية النهب (اليهودي) للمخطوطات الفلسطينية حدّاً تجاوز الحياء ، فمن ذلك ما يذكره عصام الشَّنطي في مقالة له عن مخطوطة الواسطي التي عنوانها : فضائل البيت المقدس . وكانت نسختها التي يعود تاريخ كتابتها إلى حدود عام ٥٨٣ هـ ، محفوظة بالمكتبة الأحمدية الملحقة بجامع أحمد باشا الجزار (عكا) ، ضمن مجموع خطي نفيس ، وقد أُحضرت هذه المخطوطة إلى القاهرة ، فصُورت منها صورةٌ ، حُفظت بدار الكتب المصرية (عام ١٩٣٢م) ، ثم أُعيدت إلى مكانها . وظلت المخطوطة في عكا حتى عام ١٩٦٣ ، وقتما اطلع عليها هناك المستشرق بلَمي ، ثم اختفت من عكا ، وظهرت محققةً في الجامعة العبرية ! وقد تتبع أ. عصَام الشنطي الوقائع الغريبة لاختفاء المخطوطة ، ورجَّح أن تكون قد انتقلت من مكتبتها في عكا الأسيرة ، إلى الجامعة العبرية قبل ١٩٦٩ بعام أو عامين على وجه التقريب[1]

ولعل أهم المجموعات الخطية اليوم بفلسطين مجموعة الجامعة (العبرية) ، ومجموعة المسجد الأقصى . ولا نعرف ما إذا كانت المجموعة الأولى مفهرسة أم لا ، في حين جاء فهرس المسجد الأقصى أقرب إلى القائمة الحصرية للمقتنيات ، منه إلى الفهرس العلمي بالمعنى المتعارف عليه .

---

(١) عصام الشنطي : فضائل بيت المقدس ، لأبي بكر الواسطي (مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة - المجلد ٣٦ الجزء الأول) ص ١٧ .

وبين أيدينا أربعة من فهارس مخطوطات فلسطين أعدَّها جميعاً محمود علي عطا الله ، ونشرها مجمع اللغة العربية الأردني عامَي ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، وبيانها كما يلي :

١ - فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا .

٢ - فهرس مخطوطات مكتبة مسجد الحاج نمر النابلسي في نابلس .

٣ - فهرس مخطوطات مكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل .

٤ - فهرس مخطوطات المكتبة الإسلامية في يافا .

ومع هذه الفهارس الأربعة ، نمضي في الصفحات التالية لإلقاء الضوء على محتوى المكتبات الأربع المفهرسة ، وإلقاء نظرة نقدية تقويمية على نظام فهرستها .

مُحتوى المكتبات

قد يدهش الناظر في مقدمات الفهارس الأربعة من ضآلة عدد المخطوطات المحفوظة في كل مكتبة ، حتى إن أية زاوية بُنيت في القرن الماضي في أى بلد عربي - ولم تُنهب - من شأنها أن تحتوي على أضعاف ما يوجد في المكتبات الفلسطينية (الأربع) ! التي ذكر المفهرس عدد مخطوطاتها ، كالآتي :

(أ) المكتبة الأحمدية في عكا : ثمانون مخطوطة .

(ب) الحرم الإبراهيمي : أربع وثمانون مخطوطة .

(جـ) مسجد الحاج نمر النابلسي : ثمان وتسعون مخطوطة .

(د) المكتبة الإسلامية في يافا : تسع وثلاثون وثلاث مئة مخطوطة .

وهكذا يبلغ مجموع المكتبات الخطية في فلسطين - أعني المفهرسة منها - إحدى وست مئة مخطوطة ، نادراً ما نجد فيها نسخة نادرة ! فأغلب هذه المخطوطات عبارة عن مستنسخات حديثة العهد ، مكرَّرة ، سيئة الحالة .

كما تجب الإشارة إلى أن هذا العدد المذكور ، يدخل فيه أجزاء الكتاب الواحد ، فالمخطوطات الأربع والثمانون بالحرم الإبراهيمي ، منها عشرة مجلدات تحمل عشرة أرقام ، هي أجزاء كتاب : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . ومخطوطات نابلس ، الثماني والتسعون ، منها ثمانية أجزاء من الكتاب نفسه : إرشاد الساري ! وثلاثة أجزاء تحمل ثلاثة أرقام من : ثلاثيات المسند . . . وهكذا . وبذلك يقل المجموع الحقيقي لمحتوى المكتبات الأربع عن العدد المذكور (٦٠١ مخطوطة) ، بمقدار الثلث تقريباً .

هذا عن العدد ، أما الأهمية ؛ فباستثناء المخطوطات التالي ذكرُها ، لن نجد شيئاً مهمّاً :

* المطول ، للتفتازاني . نسخة مؤرخة بعام ٧٤٨هـ ، (كُتبت في حياة مؤلفها) ، محفوظة بالحرم الإبراهيمي .

* مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا = (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض)، لتقي الدين الشمني ، المتوفى ٨٨٢هـ . كُتبت عام ٩٠٨هـ ، محفوظة بالحرم الإبراهيمي .

* الأذكار ، للنووي . مخطوطة مسجد أحمد باشا الجزار ، كُتبت عام ٧٣٣هـ .

* تهذيب ما اشتمل عليه كتاب المهذب من الغريب ، لابن معن المتوفى ٦٤٠هـ . كُتبت بُعيد وفاة مؤلفها عام ٦٥٣هـ ، (محفوظة بالمكتبة الإسلامية في يافا) .

* تشنيف الأسماع بمشايخ الفقير عُمر الشَّمَّاع = (معجم شيوخ) ، مخطوطة نادرة ، غير مؤرخة ، محفوظة في يافا .

* القمرية في الرسائل الصرفية ، لإبراهيم الجيلي . نسخة محفوظة في يافا ، مؤرخة بعام ٩٥٠هـ .

* الناسخ والمنسوخ ، لهبة الله بن سلامة البغدادي ، المتوفى ٤١٠هـ . مخطوطة يافا المؤرخة بعام ١٠٤١هـ .

* عمدة الحرفاء وقدوة الظرفاء . أرجوزة لابن مكانس ، غير مؤرَّخة ، محفوظة في يافا .

* التحديد في صنعة الإتقان والتجويد ، للداني . مخطوطة يافا ، مؤرخة في ١٠٥٤هـ .

وقد أشار المفهرس إشارة (مهذبة) تفسر (تواضع) محتوى المكتبات التي فهرسها ، فذكر في تقديمه لفهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية ، ما نصُّه : إن المخطوطات التي تم التعرف عليها وكشفها ، لاتشكل المكتبة الحقيقية التي عُرفت أيام الجزار ، بل إن ما تم التعرف إليه لايشكل سوى النزر اليسير ؛ لأن قسماً من هذه المخطوطات فُقد ، لسبب أو لآخر[1] .

وتأمل قوله : لسببٍ أو لآخر !

نِظَامُ الفهرسة :

أورد المفهرس في مقدماته الأربع لفهارسه الأربعة ، أن (المنهج) الذي اعتمد عليه يشمل الآتي :

١ - اسم المخطوط[2] .

٢ - رقم المخطوط .

٣ - المؤلِّف .

٤ - الموضوع .

٥ - عدد الأوراق .

٦ - القياسات : الطول ، العرض .

---

(١) محمود علي عطا الله : فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية (منشورات مجمع اللغة العربية الأردني - عمان ١٩٨٣) المقدمة ، صفحة ج .

(٢) الأصوب أن يقال : عنوان المخطوطة .

٧ - عدد السطور .

٨ - تاريخ النسخ .

٩ - الناسخ .

ثم يقول : وزُود هذا الفهرس بعدة فهارس[١] تفصيلية لتسهيل عملية البحث على الدارس ، وهي :

١ - فهرس الموضوعات .

٢ - فهرس المخطوطات !

٣ - فهرس المؤلفين .

٤ - فهرس النساخ .

٥ - فهرس الأعلام .

وقد أضاف في فهارسه الأخيرة (الحرم الإبراهيمي ، يافا) : فهرس الأماكن ، فهرس الكتب الواردة[٢] .

وكما هو معروف في ميدان فهرسة المخطوطات ، فإن العبرة لاتكون بالإطار النظري والمنهج ، بقدر ما تكون بالتطبيقات الفعلية على المجاميع الخطية المفهرسة . وذلك لأن الفهرسة عملية فنية في الأساس ، وليست تطبيقاً للقواعد الإحصائية .

وفي بقية هذا البحث ، سوف نُلقي نظرة نقدية تقويمية على (التطبيقات) ، التي قدَّمها المفهرس في فهارسه الأربعة لمخطوطات فلسطين ، دون أن نحتكم لمنهج

(١) الأصوب أن يقال : كشافات .

(٢) انظر : - مقدمة فهرس المكتبة الأحمدية (صفحة د) .

- مقدمة فهرس مسجد نمر النابلسي (ص ٨ - ٩) .

- مقدمة فهرس الحرم الإبراهيمي (صفحة ث) .

- مقدمة فهرس يافا (ص٦ - ٧) .

الفهرسة الصارم الذي أقرَّه معهد المخطوطات العربية ، وطبَّقناه في فهارسنا الصادرة عن المعهد وغير المعهد[1] ؛ لأن ذلك سيكون بمثابة الإطباق على زهرة برية بشِقَّيْ رحى ، أو كاصطياد عصفور ببندقية آلية ! فلنجعل غايتنا محصورة في تقويم عام للأعمال الأربعة ، وتصويب ضروري للهنات اللافتة فيها ، مع تقديرنا بالطبع لأهمية الجهد الذي قدمه المفهرس ، فنقول وبالله التوفيق .

من حيث المعلومة الأساسية التي تبدأ بها الفهرسة ، أعني عنوان المخطوطة ، فقد افتقرت الفهارس الأربعة إلي التوثيق ، واكتفى المفهرس بجلب ما وجده على الأغلفة الخارجية للمخطوطات ، بما في ذلك من أخطاء النساخ وأوهام المطالعين .

وقد بلغ هذا الأمر حدًا لافتاً في الفهارس الأربعة ، منه ما سنورده في القائمة التالية مصوَّباً - من عندنا - بين قوسين :

- **الأحمدية ص ٥١** : حاشية الشيخ محمد الأمير على ملوي (حاشية على شرح الملَّوي للرسالة السمرقندية في الاستعارات) .
- **الأحمدية ص ٥٣** : شرح قطر الندا وبل الصدا (قَطْرُ النَّدَى وبَلُّ الصَّدَى) .
- **الأحمدية ص ٥٤** : شرح الوضع (الرسالة الوضعية / رسالة الوضع للسمرقندي) .
- **يافا ص ١٣** : شرح الشمسية (تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية) .
- **يافا ص ٢٠** : غاية الإرادات من تحقيق عصام الاستعارات (غاية الإدراك من تحقيق رسالة الاستعارات ، لعصام الدين الإسفراييني) .

---

(١) صدرت فهارسنا لمكتبات : رفاعة الطهطاوي بسوهاج ، المكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية ، بلدية الإسكندرية ، مسجد أبي العباس المرسي ، المعهد الديني بسموحة ، بلدية دمنهور ، جامع المحلي برشيد ، بلدية شبين الكوم - في أربعة عشر كتاباً مطبوعاً ، أصدرتها : مكتبة الإسكندرية ، مؤسسة الفرقان ، معهد المخطوطات العربية .

يافا ص ٦٧ : متن حرز الأماني (الشاطبية = حرز الأماني ووجه التهاني ، للشاطبي) .

- **يافا ص ١١٣** : المطلع (المطلع على إيساغوجي ، لأثير الدين الأبهري) .
- **يافا ص ١٤٣** : كتاب وينقموز (!)[١]
- **يافا ص ١٥٩** : حاشية على العقائد (حاشية قول أحمد على حاشية الخيالي على شرح التفتازاني للعقائد النسفية ، للنسفي) .
- **يافا ص ١٦٣** : ملتقى الأبحرة (الأبحر) .
- **يافا ص ٢٣٨** : ضوء في النحو (ضوء المفتاح في شرح المصباح)[٢] .
- **يافا ص ٢٤٩** : الشمائل (الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية) .
- **يافا ص ٢٥٨** : حاشية في المنطق (شرح الرسالة الشمسية) .
- **الحرم الإبراهيمي ص ٢٧** : رسالة مقنطرات (رسالة في ربع المقنطرات) .
- **الحرم الإبراهيمي ص ٢٩** : التفنن في الصرف (التصريف العزي = العزي في التصريف ، للزنجاني) .
- **الحرم الإبراهيمي ص٤١** : تفسير سورة الفاتحة (مفاتيح الغيب = التفسير الكبير) .
- **الحرم الإبراهيمي ص ٦٤** : مختصر معاني ، لسعد الدين (شرح التفتازاني المختصر على تلخيص المفتاح)[٣] .

(١) لعله : حاشية ديكقوز ، وهو مؤلف تركي متأخر ، له عديد من الحواشي .

(٢) المصباح في النحو ، كتاب مشهور للمطرزي ، شرحه تاج الدين الإسفراييني ، وسمّى شرحه : المفتاح في شرح المصباح . ثم اختصر الشرح في ملخّص ، بعنوان : ضوء المفتاح في شرح المصباح ، وشرح ديباجة كتاب الضوء رضي الدين الخوارزمي ، في رسالة بعنوان : درة النوء في شرح خطبة الضوء .

(٣) لسعد الدين التفتازاني عدة شروح على تلخيص المفتاح للقزويني ، الذي اختصر فيه مفتاح العلوم للسكّاكي . واشتهر من شروح التفتازاني شرحان : المختصر ، والمطول ، وكلاهما عليه شروح وحواشٍ لا آخر لها .

- الحرم الإبراهيمي ص ٧٥ : سيد التعريفات (رسالة التعريفات ، للسيد الشريف الجرجاني) .

ولا نحب هنا أن نطيل في هذه التصويبات ، فحسبنا ما ذكرناه منها . ولنختم كلامنا في ذلك بشيء من عجائب ما ذكره المفهرس في العناوين . فمن ذلك ما أخذه من خاتمة مخطوطة ، وجعله عنواناً لها ، فالمخطوطة الواردة في صفحة ٥٦ من فهرس الأحمدية ، عنوانها : كمل المنسوخ ! والمخطوطة الواردة في صفحة ٥٢ من فهرس مسجد نمر النابلسي ، عنوانها : قصيدة الا القاصح رضي الله عنه ! والمخطوطة الواردة في صفحة ٨٢ من فهرس الحرم الإبراهيمي ، عنوانها : قصيدة عظيمة النفع ! والمخطوطة الواردة في صفحة ١١٤ من فهرس الحرم الإبراهيمي ، عنوانها : فائدة مطلق العالم لا يجمع والمقيد يجمع !

* * *

ويتصل بالكلام في توثيق العناوين توثيق المؤلفين ، وذلك لما في هاتين الخطوتين من ارتباط . إن أهمية التوثيق دعتنا في بحث سابق لتقرير أن : التوثيق هو عماد الفهرسة ، ولا نبالغ إذا قررنا أن التوثيق هو الفهرسة كلها ، ذلك لأن جميع خطوات الفهرسة ، من وصف للمخطوطة وذكر لأولها وآخرها ، وإيراد عدد أوراقها ومسطرتها . . . إلخ ، هي جميعاً عمليات (توثيقية) لهذه المخطوطة أو تلك[١] .

وقد حفَلت الفهارس الأربعة لمخطوطات فلسطين بهنات في توثيق مؤلفي المخطوطات ، بسبب لجوء المفهرس إلى إيراد كل ما وجده على أغلفة النسخ الخطية التي قام بفهرستها - والمشتغلون بالتراث يعرفون أن الأغلفة كثيراً ما تكون مضللة -

---

(١) يوسف زيدان : مشكلات توثيق العنوان والمؤلف (ندوة قضايا المخطوطات : فن فهرسة المخطوطات ، معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٩٩) ، ص ١١٨ .

ولم تسمح له ظروفه - أعني المفهرس - بالتثبت من صحة ما لقيه مدوَّناً على الأغلفة ، فأورد ضمن ما أورده هذه (المعلومات) التي صوَّبناها بعد ذكرها في فهارسه ، بين قوسين :

- **فهرس يافا ص ١٢** : منية المصلي وغنية المهتدي . المؤلف : النصراوي ، عبد الله يعقوب بن عبد الله عيسى ؟ (مُنية المصلي وغنية المبتدي ، لسديد الدين الكاشغري . المتوفى ٧٠٥ هـ . شرحه محمد الحلبي في مجلد بعنوان : غنية المتملي . وشرحه ابن أمير الحاج شرحاً بعنوان : حلية المجلي وبغية المهتدي[1] .

- **فهرس يافا ص ٢٠** : الجوهرة النيرة . المؤلف : بركلي ت ؟ (محمد بن بير علي ، المعروف ببركلي - ويقال : بركوي - المتوفى عام ٩٨١ هـ) .

- **فهرس يافا ص ١٩٤** : مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد . المؤلف : الداية ، عبد الله محمد الأسدي ، ت ٦٥٤ هـ (هو : نجم الدين داية . . . المعروف بالحافظ ابن شاهاور ، وبنجم الدين الرازي[2]) .

- **فهرس يافا ص ٢٤٣** : المنح الإلهية بشرح الألفية الوردية . المؤلف : المناوي ، عبد الرؤوف ؟ (هو المؤرخ الصوفي الكبير ، عبد الرؤوف المناوي ، المتوفى ١٠٣١ هـ ، صاحب : الكواكب الدرية في مناقب السادة الصوفية) .

- **فهرس يافا ص ٢٩٧** : الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية . المؤلف : مجهول (مؤلف الرسالة الشمسية هو : نجم الدين القزويني ، والمخطوطة ليست الرسالة الشمسية ، وإنما : حاشية على شرح الرسالة الشمسية ، وهو ما يظهر من بدايتها التي أوردها المفهرس) .

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ٢/ ١٨٨٧ .

(٢) راجع ماذكرناه عنه وعن مؤلفاته في كتابنا : فوائح الجمال وفواتح الجلال ، لنجم الدين كبري (دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٣) ، ص ٧٥ : ٨٠ .

- **فهرس يافا ص ٣١٧** : الإرشاد . المؤلف : مجهول (الإرشاد عنوان لأكثر من عشرين متنًا ، أشهرها إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني . الإرشاد في علم الكلام، لأبي المعالي الجويني . الإرشاد في النحو، لابن درستويه . الإرشاد في أصول الحديث ، للنووي ، والراجح عندي أن المخطوطة هي : الإرشاد في الفقه الحنفي ، لشجاع الدين التركستاني ، المتوفى ٧٣٣هـ)[1] .

- **فهرس الأحمدية ص ٤٠** : كتاب التحرير . المؤلف : ابن الأنصاري زكريا (يظهر من بداية المخطوطة وآخرها أنها : نظم محمود الحلبي - العمريطي - لحاشية على شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على مختصر ابن نجيم المصري : لب الأصول . الذي أوجز فيه الأخير ، كتاب التحرير في أصول الفقه ، لابن الهمام الحنفي) .

- **فهرس الأحمدية ص ٧٠** : المناوي على الجامع الصغير ، المؤلف : المناوي ت ؟ (هو شرح عبد الرؤوف المناوي - المتوفى ١٠٣١ هـ - على الجامع الصغير ، وهو متن مشهور في الحديث الشريف) .

- **فهرس الحرم الإبراهيمي ص ٢١** : نعمة الله في لغة الفرس . المؤلف : الصوفية وي (ليس هذا بعنوان مخطوطة ، ولا يوجد مؤلف بهذا الاسم) .

ونكتفي بهذه (الأمثلة) السابقة الدالة على عدم عناية المفهرس بتوثيق المؤلفين ، وهو ما نجم عنه إيرادُ عشرات من المخطوطات مجهولة المؤلف ، حتى إن نسبة المؤلفين (المجهولين) في الفهارس الأربعة تزيد على ربع عدد المخطوطات المفهرسة . وكان بإمكان المفهرس تقليص هذا الكم الكبير - ربما إلى النصف - لو كان اعتنى بتوثيق مؤلفيه .

* * *

---

(١) انظر : كشف الظنون ١/ ٧٠ .

ولنختم هذا البحث بإشارات إلى (هنات) المفهرس في بقية الخطوات التي اتبعها في فهارسه ، ونُذيل ذلك بخاتمة . على النحو التالي :

في بيان (موضوع المخطوطة) الذي أورده المفهرس بعد إيراده العنوان والمؤلِّف ، لم يقم فيه بعمل تصنيف فعلي للمخطوطة ، وإنما كان يكتفي بتكرار ما ورد في عنوانها ! فالمخطوطة الأولى في فهرس الأحمدية (ص ٣) هي : جمع الجوامع في أصول الفقه ، لتاج الدين السبكي . وموضوعها عنده : يبحث في أصول الفقه ، والمخطوطة الأخيرة في هذا الفهرس (ص ٧١) هي : تبيين المحارم ، لسنان الدين الأماسي . موضوعها : يبحث في المحارم !

والمخطوطة الأولى من فهرس مسجد الحاج نمر النابلسي (ص١٣) هي : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني . موضوعها : هو شرح لكتاب الجامع الصحيح في الحديث للبخاري . والمخطوطة الأخيرة (ص ١٠٤) هي أيضًا : إرشاد الساري . . . إلخ ، وموضوعها هو شرح لكتاب الجامع الصحيح . . . إلخ (مكررة بنصها) .

والمخطوطة الأولى الواردة في فهرس يافا (ص ١١) هي أخبار الصالحين ، للكناوي . موضوعها : كتاب في التراجم ، يركز على أخبار الصالحين ، والمخطوطة الأخيرة ، هي التحديد في صنعة الإتقان والتجويد ، للداني . موضوعها : يبحث في التجويد !

أما ما أورده المفهرس من بدايات المخطوطات وأواخرها في فهرسته ، فهو أمر غريب . ففي أغلب الأحيان يورد المفهرس من أول المخطوطة (البسملة) التي هي - بالقطع - مكررة في كل المخطوطات العربية ، ولا يورد (الحمدلة) التي هي البصمة المميزة لهذا الكتاب أو ذاك . ولا يكاد المفهرس ينقل لنا عبارة واحدة مفيدة من أول المخطوطة ، نستدل منها عليها - إلا في النادر - وهو ينقُل من أواخر

المخطوطات العبارات التقليدية التي يختم بها النُّسَّاخ كتاباتهم، ويترك عبارات المؤلفين أنفسهم. حتى إنه يقتصر في إيراد آخر المخطوطة على عبارات مثل: تم وكمل... الحمد لله على التمام... قال مؤلفه (ولا يضع بقية العبارة)... وهكذا.

وفي بعض المخطوطات، كان المفهرس يورد في (آخر المخطوطة) عبارة ليست منها، مثل ما فعله مع مخطوطة الإسنوي: (المهمات على الروضة)، التي كان آخرها عنده: صفة دهن لوجع الظهر والمفاصل[1]! أو يذكر من آخر مخطوطة: كمل المقصود. ثم يجعل هذه العبارة عنواناً للمخطوطة[2].

والمخطوطة التالية لها مباشرةً، آخرها: وسلم تسليمًا[3].

وفي غالب المخطوطات، كان المفهرس يكتفي في إيراد أواخرها، بذكر تاريخ نسخها، كما ورد في المخطوطة بالحروف، ثم يعود فيكتبه ثانية في خانة (تاريخ النسخ) بالأرقام.

خاتمة:

يبدو من هذه الإطلالة السريعة على فهارس مخطوطات فلسطين الأربعة، سالفة الذكر؛ أننا قصَّرنا كثيراً في واجبنا تجاه التراث العربي المخطوط بفلسطين، فنُهب، كما قصَّرنا في الدفاع عن أرضها، فانتُهبت.

بيد أن الفرصة لا تزال سانحة - إلى حين - أمام جامعة الدول العربية لأن تتبنى مشروعاً مهماً لإصدار فهرس موحَّد لمخطوطات فلسطين، يضمُّ ما يوجد في شتات مكتباتها، وفي المسجد الأقصى، وفي المكتبات الخاصة التي صوَّر منها

(١) فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا ص ١٩.

(٢) الفهرس السابق ص ٥٦.

(٣) الفهرس السابق ص ٥٧.

معهد المخطوطات العربية نوادر المخطوطات ، ويوضع ذلك كله في أي وعاء : فهرس مطبوع ، أسطوانة مدمجة ، قاعدة بيانات على الإنترنت . . . إلخ ، فلعل هذه الخطوة تحفظ ما تبقى لنا هناك ، وتسجل ماغفلت عنه عوادي الزمن - والدود واليهود - فظل موجوداً إلى يومنا هذا ، ولا أظنه سيكون موجوداً في الغد القريب .

وإذا كانت الدولة اليهودية ، تقوم اليوم بين ظهرانينا على قواعد اختطُّوها لأنفسهم ؛ فما بالنا لا نلتزم بأية قاعدة ؟ وإذا كان هؤلاء يصنعون لهم تاريخاً من قطع الفخار وغبار القرون وأوهام التدليس ، فما بالنا نضيع تاريخاً مسجلاً في جبين الإنسانية ، ونبدد حقائق ملموسة لاتزال مدونة في سجل الحضارات : المخطوطات ؟

* * *



تعقيبات ومداخلات

■ د. محمد فتحي عبد الهادي :

قدم أ. عصام في بحثه إضافة طيبة لخدمة التراث الفلسطيني ، فقد اختار لبحثه فترة النصف الأول من القرن العشرين ، أي فترة ما قبل الاحتلال الإسرائيلي الغاشم ، ونوه بجهود خمسة باحثين كبار ، ثلاثة منهم من سورية ، هم : طاهر الجزائري ، ومحمد كرد علي ، ومحمد أسعد طلس ، واثنان من فلسطين ، هما : عبد الله مخلص ، ومحمد عزة دروزة .

ولا شك أن البحث - على إيجازه - قد أرخ لهذه الجهود في تسلسل زمني ، في فترة كدنا ننساها ، ونبهنا إلى مصادر مبكرة يمكن الاستفادة منها في التعرّف المفصل على المخطوطات الفلسطينية ، وخاصة تلك البحوث التي نُشرت عن مخطوطات فلسطين في أوائل القرن العشرين في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

وأود أن أسجل هنا ملاحظتين :

- نبه البحث إلى قيمة المكتبات الخاصة أو المكتبات العائلية ، ومن ثم يتطلب الأمر اهتماماً بهذه المكتبات غير المعروفة على نطاق واسع ؛ إذ إنها لا تُدرج في أدلة المكتبات ، ولا يُعرف عنها الكثير ، إما لحرص أصحابها على إخفاء المخطوطات ، واعتبارها من الآثار التي يتوارثها الأبناء ، وإما لاندثار تلك المكتبات لسبب أو لآخر .

- بعد انتهائي من قراءة البحث انتابتني نوبة من الحماس والتطلع للمزيد من المعلومات عن الجهود الباكرة في التعريف بالمخطوطات في فلسطين . فتوجهت إلى

مصدرين : أولهما قائمة ببليوجرافية ، قمتُ بإعدادها ، ونشرتْها مشكورة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، بلندن ، حصرتُ من خلالها الإنتاج الفكري العربي المنشور عن التراث العربي الإسلامي ، فوجدتُ فيها - تحت موضوع المخطوطات في فلسطين - أربعة أعمال فقط !

أولها دراسة صغيرة ، نُشرت في مجلة المورد العراقية ، في ربيع ١٩٧٦ ، عن المخطوطات العربية في فلسطين لخيرية قاسمية .

والعملان الثاني والثالث كتابان : أحدهما دراسة ببليوجرافية لمخطوطات التصوف في فلسطين ، أعدها أمين سعيد أبو ليل ، ونشرها في الزرقاء ، بالأردن عام ١٩٨٨ ، وثانيهما دراسة وببليوجرافيا عن مخطوطات فضائل بيت المقدس ، أعدها كامل جميل العسلي ، ونشرها في عمان بالأردن عام ١٩٨١ . أما العمل الرابع فهو بحث لحمد يوسف ، عن مخطوطات فلسطين ، منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية ، في مايو ١٩٩٧ .

والمصدر الثاني هو الكشاف الشامل لمحتويات مجلة معهد المخطوطات العربية ، منذ ١٩٥٥ حتى نهاية ١٩٩٩ ، وقد انتهيت من إعداده .

لقد حاولت استخراج ما كتب من دراسات عن مخطوطات فلسطين ، أو مكتبات فلسطين ، أو فهارس المخطوطات في فلسطين ، فلم أعثر إلا على دراسة واحدة ، هي التي أشرت إليها من قبل ، والتي صدرت في المجلد (٤١) ، المنشور عام ١٩٩٧ .

إن وجود دراسة واحدة في مجلة متخصصة عبر تاريخها الطويل ، الذي يزيد على الأربعين عامًا ، يُعد إشارة واضحة إلى تقصيرنا تجاه تراثنا المخطوط في فلسطين .

والمقولة التي يمكن الخروج بها هي قلة ما كُتب عن التراث العربي الفلسطيني ، وقلة الفهارس التي تحصر وتصنف وتسجل المخطوطات الفلسطينية .

أعتقد أن هذه الندوة بداية طيبة ، فهي تنبه إلى ضرورة الاعتناء بالدراسة العلمية للتراث العربي الفلسطيني ، كما أنها تنبه إلى ضرورة الحصر الشامل للمخطوطات في فلسطين .

إننا في حاجة إلى انتفاضة فكرية لحماية ثرواتنا الفكرية المهددة بالضياع ، ومن منطلق أنه إذا كان الاعتداء الفاضح على البشر خطيرًا حقًا ، فإن أخطر منه ذلك الاعتداء الصامت على التراث الفكري لهذا الشعب العظيم .

■ د. عباس طاشكندي :

استفدنا كثيراً من المحاضرتين ؛ فقد ركز أ. عصام على جذور المجموعات في فترة مبكرة ، وأعطانا د. زيدان نموذجًا لتقويم الفهرسة من الناحيتين العددية ، والنوعية .

ونعلم من الناحية التاريخية أن معظم المجموعات التي تكونت تعود إلى المجموعات الوقفية ، ليس في فلسطين فقط ، بل في معظم الدول العربية ، وتعود هذه المجموعات - في الأعم الأغلب - إلى أفراد ، وقد أُوقفت هذه المجموعات في العصور الوسطى ، وصارت مجموعات كبيرة . وأطلب من المعهد أن يتتبع تلك المجموعات التي كانت لدى أفراد ، ويعرف ما آلت إليه .

ومن حسن حظ التراث الفلسطيني أنه جزء من تراث مخطوط عربي ، تولد في فترة كان العرب والمسلمون فيها متكاملين ، والتراث العربي كله يعد سنداً للتراث العربي الفلسطيني .

ولا يجب أن يُنظر إلى ما وُجد من مجموعات في فلسطين - على قلتها - على أنها هي التي تمثل هوية التراث الفكري الفلسطيني المخطوط ؛ لأن التراث الفكري

الفلسطيني المخطوط إنما يتكون من مجموع ما يتوافر في كل أرجاء العالم العربي والإسلامي أيضًا ؛ فهو جزء من حضارة بأكملها ، وأي عناية في أي ركن منه هي عناية بالتراث الفلسطيني .

وإذا خرجت بعض المجموعات - كما ذكر د . زيدان في بحثه المتميز - إلى بعض دول الخليج ، فنحمد الله على أنها لم تخرج إلى أي دول أخرى ؛ لأنه في فترة من الفترات خرج معظم هذا التراث إلى خارج حدوده الطبيعية ، أما أي دولة عربية وإسلامية ، فهي حدود طبيعية .

نقطة أخيرة ، تتعلق بما قام به د . زيدان من تقويم عددي ، وما ساقه من نماذج صارخة وواضحة ، فما ضمته هذه الفهارس الأربعة مجموعة قليلة من المخطوطات .

وما أتمنَّاه من المعهد أن يقوم بدراسة أقرب ما تكون إلى دراسة ببليومترية عن التراث المخطوط في فلسطين ، ما هي سماته الموضوعية ، وسماته المادية ، وسماته الفنية ؟ هناك مجموعات - على قلتها - في غاية الأهمية ؛ لأننا نعرف أن لأي نسخة من التراث المخطوط طبيعة خاصة ، حتى لو وُجدت عشر نسخ ؛ فقد تكون إحداها ذات أهمية مادية ، وأخرى ذات أهمية فنية ، وأخرى ذات أهمية في التعليقات ، والحواشي ، وما إلي ذلك .

■ **د. أيمن فؤاد سيد :**

لي ملاحظة على ما ذكره د . يوسف زيدان في عبارة له ، يقول : « نادرًا ما نجد في المخطوطات العربية في فلسطين نسخًا نادرة ، وأغلب هذه المخطوطات عبارة عن مُستنسخات حديثة العهد » .

إن هذا الحكم قد يصدق على مخطوطات الفهارس الأربعة التي تناولها د . يوسف زيدان ، لكنه لا يصدق على كل مخطوطات فلسطين ، والمرء لا يحكم

على مخطوطات أي بلد من خلال الفهارس الخاصة بالمجموعات الفرعية ، فمخطوطات مصر - مثلاً - لا أستطيع الحكم عليها من خلال فهارس مخطوطات مكتبة سوهاج أو المنصورة أو شبين الكوم ، ولكن الحكم يكون على أساس ما في القاهرة من مخطوطات ، والتي تضمها دار الكتب ، ومكتبة الأزهر ، إلى جانب مكتبة البلدية بالإسكندرية ، هذه المكتبات هي المقياس الذي يدلّل على قيمة المخطوطات في مصر وحجمها وأهميتها .

لقد تجاهل د. زيدان - تقريبًا - الفهارس الخاصة بالمسجد الأقصى والخالدية ، كما تجاهل المقالات المطولة التي ذكرها أ. عصام ، وذكرتُها أنا أيضًا بالأمس عن كُلٍّ من يوسف أسعد طلس ، ومحمد أسعد طلس ، وعبد الله مخلص ، وغيرهم ، وقد كان موضوع مقالات هؤلاء الأعلام خاصًا بنفائس المخطوطات الموجودة في فلسطين ، في المكتبة الخالدية ، أو مكتبة المسجد الأقصى ، أو في غيرها من المكتبات .

ولعل الصورة تتضح أكثر إذا ما عرفنا أن كثيرًا من المخطوطات هي مخطوطات عائلية ، رهينة البيوتات ، فلابد أن نرجع إلى هذه المخطوطات المتوارية ؛ لأنها توضح لنا القيمة الحقيقية للمخطوطات الموجودة في فلسطين .

وقد أشار د. فتحي عبد الهادي إلى عدد من الدراسات التي كُتبت عن مخطوطات فلسطين ، وأنا أشير - إلى جانب ما ذكره د. فتحي - إلى المسح الشامل الذي قامت به مؤسسة الفرقان في أربعة مجلدات ، فقد تناولت في الجزء الثاني - في خمسين صفحة تقريبًا - المخطوطات العربية في فلسطين ، واحتوت هذه الصفحات الخمسون على تفاصيل كثيرة أوضحتْ بدقة وشمولية الحالة التي عليها المخطوطات العربية في فلسطين .

■ **أ. محمد إبراهيم الشيباني :**

وددت لو أن البحوث التي قُدمت بالأمس واليوم تعرضت لتقدير حجم المخطوطات العربية في فلسطين ، تلك التي تعرضت للإبادة والتدمير على يد العصابات الصهيونية ، ومن يساندونها .

وأعتقد أن علماء فلسطين هم خير من يستطيع تقدير حجم المخطوطات العربية هناك ، فهم يراقبون الموقف بكل أبعاده عن كثب ، «وصاحب البيت أدرى بالذي فيه » .

ومن المعروف أن كثيراً من الرحالة والمستشرقين قاموا بزيارة فلسطين ، إلى جانب زيارتهم لدول عربية أخرى ، وذلك ابتداءً من القرن السابع عشر حتى أوائل القرن العشرين ، هؤلاء الرحالة والمستشرقون قاموا بتسريب عدد هائل من المخطوطات العربية إلى المكتبات في الغرب ، إلى جانب شرائهم لكثير من المخطوطات بثمن بخس ، دراهم معدودة ، من أناس كانوا لا يُقَدِّرون قيمة هذه المخطوطات ، ولقد أشار كثير من الرحالة والمستشرقين إلى تجاربهم في هذا الصدد .

ونُدركُ حجم الخسارة التي مُنينا بها ، إذا عرفنا أن المكتبات في أوربا وأميركا تحتوي على مخطوطات ، وصل أغلبها إلى هذه المكتبات بطرق غير مشروعة .

وكنت أود لو أن البحوث التي قدمت تعرضت بطريقة أو بأخرى لسير العلماء والأدباء الذين عاشوا في فلسطين أو كانوا بسبب منها ؛ فقد نستطيع عن طريق هذا أن نُقدر أو نضع عدداً مقاربًا لحجم التراث المخطوط الذي كان .

■ **أ. خضر سلامة :**

لا أظن أحداً يستطيع أن يقدر حجم المخطوطات في فلسطين تقديراً دقيقًا ؛ فنحن نكتشف كل يوم مخطوطات هنا وهناك ، وكم في الزوايا من خبايا ، كما يقولون ، إلى جانب أن الظروف نفسها لا تساعد على التقدير المناسب لحجم التراث المخطوط ، وما الأرقام التي تحاول أن تقدر حجم المخطوطات في فلسطين إلا أرقام

تقديرية ، لا تمثل الحقيقة كل التمثيل ، ولا أحسب أن أحدًا في أي بلد يستطيع أن يقدر التقدير الصواب لما في هذا البلد من تراث مخطوط ، فمصر نفسها ليس فيها حصر كامل للمخطوطات ، فقد تكون هناك مكتبات خاصة تحتوي على مخطوطات ، ويضن بها أصحابها على الناس ، فلا يُظهرونها للعيان .

وأتفق مع د. يوسف زيدان في قوله : إن المخطوطات في فلسطين هي مخطوطات محدودة ، وتعليل ذلك عندي هو أن فلسطين لم تكن حاضرة كدمشق أو كبغداد ، أو كالقاهرة ، وإنما هي معبر من سورية إلى مصر ، أو من مصر إلى سورية .

لقد تَمَّ نقل كثير من مخطوطات العالم العربي والإسلامي إلى المكتبات في الغرب ، عن طريق النهب أو السطو أو الشراء ، ولهذا الأمر سلبياته الكثيرة التي تعلمونها ، وإن كان له أيضًا شيء من الإيجابية ، فكون هذه المخطوطات نُقلت إلى المكتبات في الغرب ، فإن هذا من حسن حظها ، أقصد أنها نجت من البلى والهلاك؛ لأن أساليب حفظ المخطوطات وترميمها في بلاد الغرب متطورة .

أشار د. أيمن بعض الإشارات إلى تقويم الفهارس ، وهناك نقطة مهمة أود أن أُجَلِّيها ، وهي أننا في فلسطين لم نتعلم تعليمًا منظمًا ، وإنما كان تعليمنا ذاتيًا ، فأنا – مثلاً – تسلمت أمانة مكتبة المسجد الأقصى منذ ثلاثة وعشرين عامًا ، وكانت في حالة يُرثى لها ؛ فقد كانت المكتبة عبارة عن أكوام من الكتب ، فبدأنا بفهرسة الكتب المطبوعة ، ثم صورنا كل مخطوطات المكتبة على الميكروفيلم ، ثم عملنا فهارس لأفلام الميكروفيلم هذه ، وكل هذا إنما هو مجهودات فردية ، تموّلها ميزانيات محدودة ، وحالي من حال محمود عطا الله ، فقد صنع فهارسه بتمويل من الجامعة الأردنية ، ولم يتعلم الفهرسة بصورة منهجية ، وإنما اطلع على الفهارس ، ونسج على المنوال الذي وجده فيها .

■ **د. محمد عدنان البخيت :**

أثار د. يوسف زيدان سؤالاً جوهريًا ، وهو : لماذا هذه القلة في مخطوطات فلسطين ، ولماذا هذا الفقر في النوعية أيضًا ؟

ولقد كنا نتوقع أن نجد في فلسطين ألوفًا من المخطوطات ، ولكن عندما بدأنا إنقاذ هذه المخطوطات ، وذلك في مطلع الثمانينيات ، لم نجد إلا النزر اليسير .

أرى أن المجتمع الفلسطيني كان يطلب المعرفة الدينية ، لكنه لم يكن منتجًا للمعرفة العلمية ، وإن كان الفلسطينيون قد أبدعوا أيما إبداع ، من سافر منهم إلى سورية ، من مثل الشيخ عبد الغني النابلسي ، ووالده ، وجده ، إلى جانب بني قدامة ، الذين هاجروا إلى دمشق ، وكتبوا في الفقه الحنبلي كتابات ثرية .

أعتقد أن فلسطين لم تكن مستقرة من الناحية الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وذلك عبر العصور ، وإنما كانت تتطلع إلى الأزهر الشريف في مصر كمنبر للعلم ، أو دمشق كمكان للاستقرار .

أما الملاحظات التي أبداها د. يوسف زيدان على الفهارس التي أعدها محمود عطا الله ، فإني لا أبحث للأخير عن عذر ، ولكني أذكر فقط الظروف التي كان يعمل تحت وطأتها ، فقد كان هذا الرجل يغامر بحياته ، ويعمل ليلاً في مكتبات يافا وحيفا . وعندما نشرنا هذه الفهارس كنا نعلم أنها بحاجة إلى مراجعة علمية وفنية ، ولكننا نشرناها رغبةً في التعريف بخطورة الموقف .

لقد اقترح د. زيدان إعادة قراءة هذه الفهارس ، وهو اقتراح مقبول ، ولم يعد في الأمر مخاطرة ، فالمخطوطات كلها مصورة لدينا في مكتبة الجامعة الأردنية ، والباب مفتوح لمن يرغب تكليفًا أو تطوّعًا لقراءة هذه المخطوطات ، وإصلاح ما عساه يوجد من خطأ .

والحق أن كل النسخ الموجودة من فهارس أ. محمود عطا الله قد نفدت ، وأظن أن المفهرس سيعيد النظر في هذه الفهارس قبل إعادة طبعها مرة أخرى ، آخذًا في الاعتبار هذه الملاحظات .

وأقول في النهاية : إن مخطوطات القدس هي التي تمثل العصب الرئيس للمخطوطات في فلسطين .

■ د. فيصل الحفيان :

تبدو البحوث والمناقشات التي استمعنا إليها بالأمس واليوم كأنها إرهاصات تشير إلى ضرورة أن تكون هناك ندوة مستقلة للتراث عن فلسطين ، وليس في فلسطين . ونرجو أن نوفق إلى ذلك في ندوة قادمة - بإذن الله - يكون موضوعها كل ما يتصل بفلسطين وتراثها ونتاجها العلمي وأعلامها ، أينما وُجد هذا التراث ، وأينما استقر .

كما تبحث في كل ما كُتب عن هذه الأرض الطيبة : مدنها وتاريخها وثقافتها ، بأقلام أبنائها ، أو بأقلام غيرهم ؛ من أبناء الأمة العربية والإسلامية ، أو من غيرهم . محور الندوة المأمولة سيكون فلسطين على إطلاقها .

■ أ. عصام الشَّنْطي :

كلمتي موصولة بما قاله د. أيمن فؤاد سيد ، فقد حصرتُ فهارس مخطوطات فلسطين ، وكلها صدرت بدعم من الأردن ، فكان عددها أربعة عشر فهرسًا ، إلى جانب الفهرس الذي صدر عام ١٩٠٠ ، وهو خاص بالمكتبة الخالدية .

ولقد أدار د. يوسف زيدان بحثه وتقويمه على أربعة فهارس فقط ، صنعها مفهرس واحد هو محمود عطا الله ، وانتهى إلى أنه لا يوجد مفهرسون في فلسطين مغفلاً بقية الفهارس ، التي صنعها مفهرسون كبار من مثل الشيخ طاهر الجزائري ، وراغب الخالدي ، إلى جانب أ. خضر سلامة ، الذي وضع فهرسًا لمكتبة المدينة المقدسة ، هذا الفهرس صدر في ثلاثة أجزاء ، صدر الجزء الأول في القدس ، والثاني والثالث صدرا في الأردن .

ولا يجب أن ننسى الظروف القاسية التي عمل تحت وطأتها هؤلاء المفهرسون . فإذا ما أضفنا إلى هذه الظروف ما سلف من عدم استقصاء د. يوسف في تقويمه للفهارس ، فإننا نستطيع أن نقول : إن ما انتهى إليه ليس صحيحًا كل الصحة .

■ **د. يوسف زيدان :**

أعتقد أن د. أيمن لم يتنبه إلى قولي : « وبين أيدينا أربعة من فهارس مخطوطات فلسطين » . ولا أظن أحدًا يستطيع أن يُلزم أحدًا باختيار مجال بحثه .

وعندما أوجه ملاحظات تقويمية إلى هذه الفهارس الأربعة ، لا أرى من حق أحد أن يوجهني إلى فهرس أو فهارس أخرى سواها ، فقد تكون فهارس أ. خضر جيدة - مثلاً - ولا تحتاج إلى تقويم ، فما وجه إدخالها في تقويمي إذا كان الحال هذا ؟

كذلك لم يتنبه د. أيمن إلى قولي : « وهكذا يبلغ مجموع المكتبات الخطية - أي المفهرسة - ٦٠١ مخطوطة ، ونادرًا ما نجد فيها نسخة نادرة » . كلامي هذا لم يكن منصبًا إلا على المكتبات الأربع ، وليس على كل مكتبات فلسطين بما فيها من مخطوطات .

أما أ. خضر سلامة ، فقد ذكر أن أساليب الترميم في أوربا أحدث من نظيرتها في الدول العربية . وأنا أسأل : لماذا ؟ وكيف وصلت إلينا المخطوطات العربية ، وبعضها يصل عمره إلى أكثر من ألف عام ؟ أرجو ألا يصل بنا الأمر إلى أن نقول : لقد كان حسنًا أن وصلت بعض مخطوطاتنا إلى أوربا ، فقد حفظوها أكثر أو أفضل مما كنا سنحفظها . إن معنى هذا الكلام أننا لا نستطيع أو لا نعرف كيف نحافظ على مخطوطاتنا !

أما القول بأن الفهرسة عمل فردي ، فإن هذه حجة لا تَثْبُت ، ولا يُؤخذ بها ، والقول بأن فلسطين كانت بعيدة عن الإبداع العلمي على مدى تاريخها قول غير دقيق ، فأهم عالم رياضي مصري كان قد خرج من فلسطين إلى جانب المشايخ من مثل عبد الغني النابلسي وعائلته ، وما نجده من علماء كثيرين ، كلهم

تحت لقب المقدسي ، ومن يتصفح سير أعلام النبلاء ، يجد كثيراً من العلماء تحت هذا اللقب ، فما بالك بكتب التراجم التي جاءت بعد الذهبي .

وأقول للأستاذ عصام الشَّنْطي : إنني لم أقل : لا يوجد مفهرسون في فلسطين، وإنما نص كلامي هو : ليَقُم الإخوة في فلسطين بعمل فهرس موحد لمخطوطاتها ، أو ليندبوا لهذا العمل شخصًا آخر ، أو ليتجشم المعهد هذه المهمة . وأكثر من ذلك أنا مستعد للعمل تطوعًا . ولم أقل هذا رغبة في سَحْب البساط من تحت أرجل مفهرسي فلسطين، ولا أرى أن هذا عمل صعب ، فمجموع المخطوطات الموجودة في فلسطين يفهرس حسب القواعد الصارمة في ستة أشهر .

■ د. فتحي عبد الهادي :

لدي ملاحظة على كلام د. يوسف زيدان ، فقد طلب من أ. محمود عطا الله (الذي كانت فهارسه موضوع البحث) أن يقوم بتوثيق عنوان المخطوط ، والحق أن الأخير لم يذكر في مقدمة أعماله أنه يُوَثِّق ، فكيف نطلب منه التوثيق ، وهو لم يقصد إلى شيء من هذا ؟!

كما أنه من الصعب أن أطبق قواعد صنعها د. يوسف أو صُنعت له على فهارس أُعدت في زمن قبل وضع هذه القواعد ، وأريد أن أقول - وأنا واثق مما أقوله - : لا توجد حتى الآن قواعد مقَنَّنة لفهرسة المخطوطات العربية .

لقد عاب د. يوسف على المفهرس أنه لا يوثِّق العنوان ، على الرغم من أن القواعد الأصيلة في مجال فهرسة المخطوطات تقول : انقل حرفيًا ما هو موجود على الغلاف من عنوان أو غيره ، ثم صحِّحْه أو غيِّرْه - في ما بعد - كما تشاء ، فالأصل إذن هو إثبات العنوان الموجود على الغلاف كما هو ، حتى لو كان فيه خطأ .

ومن حق المفهرس أن يضع عنواناً إن لم يجد عنواناً للمخطوط ، وقد يُستمد هذا العنوان من خاتمته ، ونحن نعرف أن هناك بعض المخطوطات ، يرد ذكر عنواناتها في الخاتمة ؛ فقد تكون خاتمة المخطوط - في بعض الأحيان - مصدراً من مصادر توثيق العنوان .

■ **د. يوسف زيدان :**

ما معنى قول د. فتحي : ليست هناك قواعد للفهرسة ؟ إن هناك (١٨) ألف مخطوطة تمت فهرستها على أساس قواعد محددة .

هذه القواعد وضعها معهد المخطوطات العربية ، ولم أضعها أنا ، ولا وُضعت لي ، بل وُضعت بعد استقراء طويل ، وندوات كثيرة ، أدلى فيها المتخصصون في هذا المجال بآرائهم .

وإذا كنا نريد أعمالاً في الفهرسة ذات قيمة ، فقد كان من الواجب أن تُراجع الفهارس الأربعة التي أشرت إليها من قبل ، على يد متخصصين ، حتى تخرج بالصورة العلمية المنهجية اللائقة .

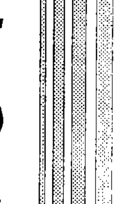
* * *

الجلسة الخامسة

المحاضرة الختامية



جهود الأردن في خدمة مخطوطات فلسطين



د. محمد عدنان البخيت

■ **د. أحمد مختار عمر (رئيس الجلسة) :**

نفتتح الجلسة الختامية ، التي تقتصر على محاضرة واحدة للدكتور محمد عدنان البخيت ، رئيس جامعة آل البيت في عمَّان ، وموضوعها « جهود الأردن في خدمة مخطوطات فلسطين » .

وآمل أن نسعد بهذه المحاضرة التي ستضيف إلى معلوماتنا الكثير عن الجهود الإقليمية في خدمة تراث فلسطين المخطوط ، فنحن نعلم أن الأردن قام بجهود متميزة في هذا الصدد ، وهي جهود لابد من رصدها لنبني عليها ، ونكملها ، حتى يتحقق التكامل الذي نسعى إليه ، ونختصر الطريق في سبيل غايتنا .

أدعو د. البخيت ليتفضل بإلقاء محاضرته .

* * *

عُنيتُ بالمخطوطات وبالآثار وبالسجلات منذ مطلع السبعينيات ، فهو اهتمام قديم إذن ، بدأته في مدينة القاهرة ، ومنها انطلقت إلى مختلف مدن العالم ، أطوف بين مكتباتها ومتاحفها .

وإذا كان موضوعنا عن مخطوطات فلسطين ، فإني أستأذنكم - أولاً - في أن أتوسع في تعريف المخطوط العربي ، على الأقل في ما يخص فلسطين ؛ لأن فلسطين لها خصوصية ، فهي تتعرض للإبادة ، ولمحو الذاكرة وتهويدها ، وإلى ما نعرفه جميعاً مما يجري على الأرض المحتلة في هذه الأيام ، وفي مستقبل الأيام القادمة ؛ ولذلك أقترح أن نتوسع في المفهوم ، ونخرج من الفهم التقليدي أو ما تعارفنا عليه في تعريف المخطوط ، مع أن هذا التعريف الذي يأخذ بتوجه الفنيين الذين يقومون على إعداد الفهارس وجمعها وتنظيمها ونشرها - ليس جامعًا مانعًا ،

ولكن أشير إلى ما تفضل به صباح أمس د . أحمد صدقي الدجاني من أن نتوسع في مفهوم المخطوط ليشمل السجلات والنقوش والعملة والعمائر وكل أثر عربي على أرض فلسطين .

الأمر الثاني : وقد أشار إليه - على ما أظن - د . فيصل الحفيان ، وهو يتعلق بما كُتب عن فلسطين ، سواء بأقلام عربية إسلامية من سادتنا العلماء الأوائل ، أو بما نشأ في ما بعد من مدارس تتناول تاريخ فلسطين في ضوء كتابة الطرف الآخر الصيغةَ المقترحة المتجددة من جانبهم لتاريخ فلسطين .

وإذا ما أخذنا باقتراح توسيع مفهوم المخطوط بالنسبة لفلسطين على الأقل ، فهذا يعني تحقيقاً أن نُدخل قضايا الحفريات والنقوش ضمن اهتمامنا في هذا الاجتماع الخير ، وأعرف جيداً ما سيقال لي من أن الولاية العامة لمعهد المخطوطات لا تشمل خارج ما هو منصوص عليه في دستوره الداخلي ، ولكني أقول : يمكن للمعهد أن يبادر بالتنسيق مع جهات عربية ، سواء في داخل الدول العربية أو في خارجها كالفرقان وغيرها ، وأن يكون العمل عملاً جماعياً ؛ لأنني أعرف أن الحجة اليهودية تقوم على المراحل التاريخية الأولى ، وعلى النقوش والحفريات . ولا بأس من أن نبدأ بجمع الحفريات ونلخصها ونبوبها ، ونحرص على جمع النقوش بالذات ونترجمها .

وقد بدأت مؤسسة آل البيت في عمان بإشراف د . ناصر الدين الأسد بهذا الجهد ، ولكنها بحاجة أيضاً إلى مساندة كل الجهود العلمية داخل الأردن وخارجه .

ويمكن أن نأخذ في الحسبان بعض المدونات أو المجاميع ، وعلى رأسها مجموعة « قُمْران » ، التي تم اكتشافها في مغارة بمنطقة البحر الميت على الضفة الغربية ، إلى جانب الدراسات التي عُقدت حول المجموعة وما يُستنتج منها .

نحن بحاجة إلى أن ندخل إلى النص التوراتي بنص ديني آخر ، وخير ما يعيننا على ذلك مجموعة « قمران » ، وليس هنالك - على ما أعلم - دراسات عربية جادة ، باستثناء بعض المقالات أو ما لخصه المرحوم محمود العابدي حول الموضوع .

ولابد أن نلتفت إلى المكتبات المحاذية لفلسطين أو تخومها ، وأخص بالذكر مكتبة « سانت كاترين » في سيناء ؛ لأنها تحتوي على كثير من الإشارات عن العشائر ، وطرق الحج ، والقوافل ، والأمن ، و« المكارية » ، وغير ذلك ، وهذه المجاميع باللغة العربية ، وبعضها باللغة التركية ، وبعضها باللغة المحكية ، وبعضها باليونانية أو القبطية ، وهي في مجملها تساعدنا في فهم تاريخ جنوبي فلسطين .

ويمكن للمعهد أن يتبنى هذا الجانب ، على الرغم من خروجه عن دائرة اهتمامه ، بالتعاون مع مؤسسات علمية أخرى ذات صلة ، وهذه الهيئة الموقرة تستطيع أن تقوم بدور مؤثر في تسهيل مهمة المعهد .

إن الحقب التاريخية التي سبقت الفتح العربي الإسلامي لفلسطين بحاجة إلى إعادة قراءة ، من أجل صياغة تاريخ جديد ، يساعدنا على الفهم ، وبخاصة في ما يتعلق برسائل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الفتوح .

ونحن الآن بحاجة إلى أطلس جغرافي جديد مبني على الدراسات الجادة ، في ضوء النقوش والحفريات والشواهد والصور ؛ لنخرج بتصور علمي موضوعي عن تاريخ فلسطين .

أمر آخر هو تجميع النصوص التي وردت عن فلسطين ، سواء في النص السرياني أو الأرميني أو البيزنطي أو اللاتيني - في ما بعد - وبخاصة في عهد الفرنجة أو الصليبيين ؛ لأننا قرأنا تاريخ هذه البلاد من خلال المصدر العربي ، ولم نقرأه مقارنًا بالمصدر الفرنجي من الطرف الآخر ، ما خلا بعض الدراسات القليلة التي ظهرت هنا أو هناك .

وأود أن أنوه بجهود الإخوة الذين بذلوا كل الجهد بما في ذلك المخاطرة بزيارة المكتبات والمتاحف ، والتصوير تحت أقسى الظروف وأصعبها ، ثم نقل هذه الصور إلى عمَّان . ولم يكن هذا بالأمر اليسير ؛ لأنه كان يخضع إلى تدقيق شديد وملاحظة ومتابعة ، ولم يحن الوقت لنعلن عن أسماء الخيِّرين من الناس الذين

يغامرون بنقل هذه الأفلام وغيرها حتى الآن ، إلى جانب المصورين الذين كانوا يغامرون بالانتقال من داخل أراضي الضفة الغربية إلى ما يسمى «أراضي إسرائيل» ، ومن ثم كانوا يتعرضون لصعوبات كثيرة ، كان بعضها يشكل خطورة كبيرة على حياتهم ، فلذلك أرجو أن تقبلوا مني أن أشكرهم من على هذا المنبر ، والشكر موصول إلى الذين مولوا هذه العملية بالكامل ، وعلى رأسهم الجامعة الأردنية بعمان .

ولقد كان هناك إخوة كرام من الجالية الأردنية في السعودية ، ودول الخليج الشقيقة ، تنافسوا في الدفع ، وكان بعضهم يصر على ألا نأخذ من غيره ، بل نكتفي بما دفعه ، حتى لا يشاركه أحد في الأجر ، وكنا نقول : هذا عمل خير لا نستطيع أن نحجبه عن أحد .

وثمة إشارة لابد منها - في اعتقادي - مفادها أن المخطوطات العربية في فلسطين محدودة ، وهي للتعليم أو كتب خاصة بالمساجد والزوايا ، بالإضافة إلى بعض كتب الفقه والتفسير وعلوم الحديث الشريف .

والحقيقة أن فلسطين شهدت عبر تاريخها اهتمامًا كبيرًا من الظاهر بيبرس ، ومن قبله السلطان صلاح الدين ، فكل منهما أسس المدارس ، ليس في القدس وحدها ، بل أيضًا في الرملة واللد ونابلس وصفد وغزة . ويندر أن توجد بلدة فلسطينية ، ليس بها مسجد بناه السلطان الظاهر بيبرس ، أو السلاطين المماليك ، أو عمَّره ووَسَّعه العثمانيون في ما بعد .

ولقد قامت فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدور الاستقطاب السكاني من مصر ، إذ استقر عدد كبير من سكان دمياط وغيرها في السواحل الفلسطينية ، بالإضافة إلى قسم كبير من الإخوة المسيحيين الذين نزحوا إليها ، وأقاموا فيها .

ومما ساعد على انتعاش السواحل الفلسطينية وإعمارها وإسكانها من جديد ما كان يصل من سلع تجارية إليها ، وكان ذلك بعد الحروب الصليبية ، والحملات الأوربية على فلسطين والإسكندرية وسواحل الشام .

ويروق لي أن أركز على الإسهام المميز للجامعة الأردنية ؛ فقد نجحت في الوصول إلى السجلات والدفاتر العثمانية التي تخص فلسطين ، وهي موجودة في إستانبول ، وأنقرة ، وقامت بتصويرها .

وتبدأ هذه السجلات منذ مطلع القرن السادس عشر ، وتتضمن إحصاءات السكان ، وبيان الضرائب ، والرسوم التي كانت تتقاضاها الدولة ، بالإضافة إلى الخراج ، وإلى تصنيف الناس إلى مسلم وغير مسلم ، وما إلى ذلك .

وتعرف هذه السجلات باسم دفاتر « الطابو » . وقد تنبه إلى أهميتها الأساتذة في الجامعة العبرية ، فكتبوا تاريخ فلسطين من خلال الوثيقة العثمانية .

وهناك أيضًا الدفاتر التي لم تفتح حتى الآن ، وهي دفاتر المالية المدورة ، وهي عبارة عن الموازنات ، وكمية المبالغ التي كانت ترسل من إستانبول أو مصر أو دمشق؛ لدعم المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة في فلسطين . هذه الكتب والدفاتر والسجلات صورناها جميعًا ، وتقع في حدود مئتين وخمسين ألف صفحة أو تزيد ، ولقد نشرنا بالتعاون مع المركز الإسلامي في إستانبول دفترًا بكشف الأرشيف العثماني . ترجمه وأعده زميل من مصر ، هو صالح سعداوي صالح ، وهو من كبار من يتقنون اللغة العثمانية والعربية ، وقد أحضرتُ نسخة منها لمكتبة المعهد .

إن السجل العثماني مهم ، ويضاف إليه في مرحلة التنظيمات في القرن التاسع عشر « السنانات » ، والصحف ، سواء الصحف الرسمية في ولاية سورية ، وفيها مادة ضخمة عن فلسطين ، أو الصحف الأهلية المختلفة ، التي تم رصدها وتصويرها وإيداعها في المكتبة الأردنية .

وهناك قضية مهمة للغاية ، وهي قضية الهوية ، ولقد أشار إليها أحد الزملاء أمس قائلاً : « إننا نستطيع أن نسترد شبراً من الأرض ، ولكننا - ربما - لا نستطيع أن نسترد هويتنا إذا شُوهت » . وأقول : لقد وجدنا الهوية في السجل الشرعي ، وهو موجود تقريبًا منذ مطلع القرن السادس عشر ، ويضاف إلى ذلك سجلات المحاكم الشرعية في الصفد واللد والرملة ونابلس ويافا ومعظم المدن الفلسطينية . وبجانب السجل الشرعي يجب أن نذكر سجل الأوقاف ، ولقد قمنا بمسح واسع ؛ لتصوير سجلات الأوقاف في مختلف المدن الفلسطينية . وباستثناء غزة ، فقد تم جمع كل شيء عن فلسطين ، ضمن إطار السجل الشرعي ، وسجل الأوقاف ، ودفاتر الأحوال الشخصية ، بما في ذلك إحصاءات النفوس في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

ولقد قمنا تعزيزًا لهذه المجاميع بجمع الرحلات عن بلاد الشام ، وعن فلسطين بخاصة حتى تكون مع تقارير القناصل الإنجليز والأميركيين والألمان والفرنسيين - مصدرًا متوفرًا للباحثين من مختلف الاختصاصات .

وإذا كان في تركيا حفاظ كبير على المخطوطات ، سواء في المكتبة السليمانية أو في بقية المكتبات ، فإن هناك صعوبة في إرسال أي بعثة للتصوير إلى تركيا . والنصيحة أن نذهب إلى تركيا كدول ولا نذهب كمجموعة ، فذلك يسهل الحصول على الموافقة بالتصوير ، وعلى كل الدول العربية أن تتبارى لتصوير أكبر عدد ممكن من مخطوطات تركيا .

هناك موضوع آخر ثري جدًا ، وهو أوراق الحرم القدسي ، وهذه الأوراق عبارة عن مراسلات ، ووقفيات ، وكانت قد اكتُشفت في القدس ، وأُودعت في مكتبة تابعة للمسجد الأقصى ، واستطاع أحد الأساتذة الكنديين أن يحصل على صورة من هذه الأوراق ، ويقوم بفهرستها ، وأصدرتها إحدى الجامعات في كندا .

وهذه المجموعة هي فاتحة مجاميع ، وليست الوحيدة . كما سمعت من أكثر من جهة ، ومن أ. خضر سلامة أنه لا تزال كميات كبيرة من السجلات والقيود والدفاتر العثمانية معبأة في أكياس ، في أماكن مختلفة من المسجد الأقصى .

خلاصة الأمر تثير السؤال التالي : أين نحن بعد كل ما قلت ؟ ينبغي أن نوفر كل هذه المواد ، ونحن نعلم أن الكلفة طائلة ، فلابد من حفظ هذه المواد ، وتسجيلها على أفلام فضية ، حتى لا تتلف ؛ لأن العمر الافتراضي للفيلم - كما هو معروف - يقدر بخمسة وعشرين عاماً ، يبدأ بعدها التلف في الوصول إلى الفيلم ؛ لذلك لابد من تحويلها إلى أفلام فضية ، واستخدام التقنية الحديثة لتحويلها كلها إلى التخزين على الحاسوب .

ولن أنسى أن أشير إلى مشروع ريادي قمنا به ، ويتصل بدفاتر « الطابو » المتعلقة بفلسطين ، فقد نشرنا دفاتر اللَّجُّون ، ومسجد العامر ، ونشرنا أيضًا قسمًا كبيراً من الدفاتر الخاصة .

ونعكف الآن على دراسة وتحقيق ونشر وتعريب سبعة عشر دفترًا عن القدس والخليل فقط ، ونتوقع أن تكون هذه الدفاتر ذات أثر على تاريخ مدينة القدس ، وأحيائها وحاراتها ومدارسها .

كما قمنا بدراسة للمناطق الفلسطينية بدءًا من صفد ، ومرورًا بالقدس ، وانتهاءً بغزة ، وعقدنا ثماني عشرة دراسة حول المدن التي من الدرجة الثانية ، مثل نابلس ، واللد ، ورفح ، لتوظيف السجل الشرعي والوقف والسجل العثماني معًا .

وقمنا أيضًا بعقد مؤتمر عن تاريخ فلسطين ، وبخاصة في العصر المملوكي والعثماني ، وصدرت مقررات هذا المؤتمر في مطبوعة ، أحضرتها معي هدية إلى مكتبة المعهد .

وباشرنا مع الإخوة في سورية استئناف كتابة تاريخ بلاد الشام ، وكما تعلمون فإن كتابة هذا التاريخ بدأت عام ١٩٧٤ ، ولا يزال التشاور قائمًا بين جامعة دمشق ، والجامعة الأردنية .

أختم بتكرار تأكيد أهمية السجلات الشرعية ، وضرورة أن نقرأ نصوصها ، ونجيد فك غوامضها . ونحن الآن نضع جميع المادة الوقفية المتعلقة بمدينة القدس على الحاسوب في الجمعية العلمية الملكية ، ونستعين بسجل الأراضي الذي أُعد أثناء الانتداب البريطاني ، وسنفيد من ذلك معرفة غنية عن الأشغال والتوريد والملكيات الخاصة بالمدينة المقدسة .

هذه إلمامة سريعة بما تم إنجازه في الأردن ، وأضيف إلى ذلك تلك الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) للمدن الفلسطينية ، وأهمها دراسة للسجل الشرعي في القرن السادس عشر عن أهل القدس ، ودراسة أخرى عن القدس في القرن الثامن عشر من خلال كتاب حسن عبد اللطيف .

* * *

تعقيبات ومداخلات

■ **د. عبد الستار الحلوجي :**

شرف كبير لي أن يُعهد إلي بالتعقيب على هذه المحاضرة الثرية ، ولعلكم تلاحظون أنه في الجلسات السابقة من هذه الندوة كان هناك متحدثان ومعقبان في كل جلسة ، ما خلا المحاضرة الافتتاحية ، والمحاضرة الختامية . وأُلقي بذلك عبء أكبر على المحاضر والمعقب معًا ، ولعل من براعة الاستهلال أن تكون المحاضرة الافتتاحية للدكتور كمال عرفات ، وأن يكون المعقب هو د. أحمد صدقي الدجاني . وأتصور أنه من حسن الختام أن تكون المحاضرة الختامية الأخيرة للدكتور عدنان البخيت ، صاحب الجهود المعروفة والمشهورة في مجال المخطوطات ، ومخطوطات فلسطين على وجه خاص .

ودعوني أعترف لكم بادئ ذي بدء بأن التعقيب على د. البخيت مهمة صعبة ؛ لأنه يتطلب ممن يتصدى له أن تكون له قدمان راسختان على أرض المخطوطات ، وأن يكون له في الوقت نفسه جناحان قويان ، يستطيع أن يحلق بهما إلى الآفاق الرحبة التي نقلنا إليها الأستاذ المحاضر .

وأظنكم تتفقون معي في أنه تناول عناصر كثيرة جدًا في هذا الوقت القصير ، وبتركيز شديد ، وقد كنت ألهث وراءه في محاولة لتسجيل الأفكار الرئيسة التي كان يتحدث عنها ، وبلغت هذه الأفكار أكثر من ستة عشر عنصرًا في الأوراق التي أمامي ، في هذا الوقت الضيق .

والحق أقول : إنني استمتعت بالمحاضرة ، وأفدت منها كثيرًا ، وأسعدني ما سمعته من خدمات جليلة ، تقدمها الجامعة الأردنية والمملكة الأردنية الهاشمية للتراث المخطوط في فلسطين .

وليس ذلك مستغربًا على الأردن ؛ فهي المؤهلة لذلك جغرافيًا وتاريخيًا ، وذلك قَدْرُها ، وقَدَرُها .

وأتصور أن هناك جهودًا يمكن أن تُبذل على وجه السرعة ، وهي جهود ينبغي أن تتكافل أو تتكاتف فيها الدول العربية جميعها ، والدول الإسلامية أيضًا ، وأن تكون الأردن في مقدمتها ؛ فذلك منطق الجغرافيا ، ومنطق التاريخ أيضًا ، وتتمثل هذه الجهود في :

- فهرسة مجموعات المخطوطات في فلسطين ونشر فهارسها ؛ لأن الفهرسة شيء ، ونشر الفهارس شيء آخر ، فلابد أن نحصي المخطوطات الموجودة في مكتبات فلسطين ، سواء كانت هذه المكتبات حكومية أو أهلية ، وأن ننشر هذه الفهارس على الناس ، حتى يعرفوا ما هو موجود من مخطوطات في المكتبات .

- المسارعة إلى إدراك ما تآكل من هذه المخطوطات ؛ فكثير منها معرّض للهلاك ، ويحتاج إلى ترميم ، ولابد من السعي الحثيث لإنشاء معهد للترميم بطريق ما ، وقد أُشير إلى ذلك أمس ، ولقد ظهرت حاجة ملحة إلى ترميم كثير من المخطوطات قبل أن تبلى في ما قُدِّم من أوراق وملخصات .

- لابد من تصوير ميكروفيلمي لكل المخطوطات الموجودة في فلسطين ، واختيار النفائس منها ، وتحميله على الأقراص المدمجة أو المضغوطة .

ولقد أشار د. البخيت إلى الجهد الرائع الذي بُذل في تصوير المخطوطات في فلسطين ، وإلى الصعوبات البالغة التي صادفها المصورون ، وأسعدني جدًا أنه شكر هذه الفئة من الفنيين التي لا يُلتفت إليها كثيرًا ، على الرغم من أهميتها في أداء العمل وجودته .

- لابد من إنشاء مرصد للبيانات لببليوجرافيا مخطوطات فلسطين ، ويكون لهذا المرصد موقع على الإنترنت ، وميزة هذا المرصد أنه يُحدَّث باستمرار ؛

إذ نستطيع أن نضيف إليه أي جديد ، كما أن أي أحد في مقدوره أن يستفيد ، في أي مكان كان .

إن عيب الفهارس هو أن المخطوطات فيها ليست سريعة النمو . ولقد يقال : إن الفهرس المطبوع هو أنسب الفهارس للمخطوطات . وهذا صحيح ؛ لأن المخطوطات في المكتبات محدودة ، والقراء في أماكن غير محدودة ، فلا سبيل إلا أن أجد فهرسًا مطبوعًا .

والحاسبات الآلية ستريحنا من كثير من العناء وكثير من التكاليف أيضًا ؛ لأن الفهرس حتى ينجز إعدادًا ، ويدخل إلى المطبعة ، ويتم إصداره ، حتى يحدث هذا كله تكون معلومات هذا الفهرس قد تقادمت في الفترة التي طبع فيها الفهرس على الأقل ، فما بالك على مستوى العالم ؟

ولقد يقال : إن المخطوطات نموها بطيء . نعم هذا صحيح ، ولكننا نستطيع أيضًا أن نقوم بتخزين هذه البيانات على وسائط حديثة ، يطلع عليها القارئ في أي مكان .

إن المعلومات تُحَدَّثُ باستمرار ، وأظن أن هناك قواعد بيانات بدأت تُنشأ في دول عربية غنية ، وأخرى فقيرة أيضًا ، ولابد ألا نتخلف في هذا المجال .

ومشكلة المخطوطات هي أنها تحتاج إلى بيانات معقدة ، وبيانات تفصيلية أكثر ، لا يتقنها كثيرون .

والحق أن هذه ليست مشكلة تكنولوجيا ، بل هي مشكلة الإنسان ، أو لنقل : إنها مشكلة المفهرس نفسه ؛ فقد لا يعرف المفهرس كيف يستفيد من المخطوطات أو كيف يصفها ، أو يصف الخطوط ، أو يؤرخ مخطوطًا غير مؤرخ .

إن قلة من المفهرسين هم الذين يعرفون هذه الأشياء ، وهي تحتاج إلى خبرة

طويلة قد تصل إلى عشرين أو ثلاثين عامًا من العمل في مجال فهرسة المخطوطات، وقلة هم الذين يقبلون هذا العمل ؛ لذلك فإن إنشاء مرصد بيانات ببليوجرافي هو مطلب ضروري ، إذ يمكننا من خلاله أن نُخرج ببليوغرافيات شارحة ، تعطي فكرة مختصرة عن النص ، وإذا كنا نتحدث عن مخطوطات فلسطين ، فإن مثل هذا المرصد وبياناته هو الذى يساعد على تأصيل فكرة الأرض ، ومَنْ أحق بها بأساليب علمية .

- يجب أن نحرص على جمع الوثائق والنقوش ، والتعريف بها ، كما نحرص على تجميع المخطوطات ، والتعريف بها ، تلك المهمة التي يقوم بها معهد المخطوطات . ولابد من تحقيق أهم مصادر المعلومات ونشرها ، وأنا أقول : مصادر المعلومات ، ولا أقول : مصادر المخطوطات ؛ لأن المخطوطات على الرغم من كونها مصدرًا أساسيًا ، فإن بجانبها أيضًا مصادر أخرى قد تكون أكثر أهمية ، تؤكد الحق العربي في أرض فلسطين ، وتفند مزاعم الصهاينة .

ولقد أشار المحاضر إلى الكتابات التي كُتبت عن فلسطين قبل الإسلام ، ويجب أن نهتم بها ، إلى جانب النصوص التي وردت عن فلسطين بلغات أخرى غير عربية ، كالسريانية ، والأرمينية ، والبيزنطية ، واللاتينية ، كل هذه النصوص الأجنبية لابد أن تجمع ؛ فقد تكون النصوص الأجنبية أكثر إقناعًا بأن هذه الأرض أرض عربية ، وليست أرضًا إسرائيلية .

- العنصر الأخير هو تدريب كوادر فلسطينية شابة على أعمال فهرسة المخطوطات ، وعلى أعمال الترميم أيضًا ، وهنا لابد أن نذكر الفضل لأصحابه ، وأن ننوه بجهود مؤسستين خيريتين في مجال المخطوطات ، هما مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن ، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي .

المؤسسة الأولى تضع في بؤرة اهتمامها التعريف بمجموعات المخطوطات

الإسلامية في مختلف دول العالم ، وبما نُشر لها من فهارس ، وما لم يُنشر ، وقد أصدرتْ حصراً لمجموعات المخطوطات الإسلامية في العالم ، وذلك في أربعة مجلدات باللغة الإنجليزية ، تُرجم منها مجلدان إلى العربية ، والمجلدان الآخران في طريقهما إلى الصدور .

كما نشرت فهارس مخطوطات لمكتبات لم نكن نعرف عنها شيئًا ، مثل مكتبة شنقيط ووادان بموريتانيا ، والمكتبة الوطنية الألبانية في إيران ، ودار الوثائق القومية النيجيرية في كادونا ، وغيرها .

ومن بين تلك الفهارس التي نشرتها مؤسسة الفرقان الجزء الثالث من مكتبة المسجد الأقصى الذي أعده خضر سلامة ، ونشر عام ١٩٩٦ ، وكان قد نُشر الجزء الأول عام ١٩٨٠ في القدس ، ونُشر الجزء الثاني بعمان في عام ١٩٨٣ .

وتوقفت أعمال الفهرسة ، كما ذكر أ. خضر نفسه في مقدمة هذا العمل ؛ لأن الجزء الثالث لم يصدر .

لقد أشار د. البخيت - في هذه المناسبة - إلى دفاتر « الطابو » المتعلقة بفلسطين، كما أشار إلى أنه يدرس ويحقق منها سبعة عشر دفتراً ؛ لكي تنشر ، وتتولى مؤسسة الفرقان نشر هذه الدفاتر ، أقول هذا في سياق إبراز دور مؤسسة علمية خيرية ، تهتم بالتراث الإسلامي المخطوط ، وتوسع دائرة المخطوطات ، أو دائرة التراث ليشمل الوثائق أيضًا إلى جانب المخطوطات .

أما مؤسسة جمعة الماجد ، فهي تهتم بتجميع المخطوطات ، وصيانتها ، وترميمها ، وتفتح عينها على كل مراكز المخطوطات في العالم ، وقد قامت مشكورة بأخذ زمام المبادرة ، ومدّ جسور التعاون مع المكتبات العربية ، وغير العربية .

وأنا أعرف أنها عرضت على أكبر مكتبتين للمخطوطات في مصر أن تقدم لهما خدمات التصوير ، والترميم ، والتدريب ، وأن تمدهما بجميع ما يلزمهما من ورق لترميم المخطوطات مجانًا ، لكن المسؤولين - بكل أسف - لم يكونوا على مستوى المسؤولية في كلتا المكتبتين ، فكانت استجابتهم مخيبة للآمال ، وتلك مأساة بكل المعايير .

تلك بعض خواطري التي أثارتها في نفسي محاضرة د. البخيت ، وأختم حديثي بما بدأت به من أن التعقيب على عالم جليل كالدكتور البخيت أمر صعب ، ولقد أحسن معهد المخطوطات ظنَّه بي حين اختارني لهذا الموقع ، وأرجو ألا أكون قد خيبت له ظنًا .

■ **د. سعيد مغاوري :**

ثمة ألف بردية مخطوطة ، عُثر عليها في البحر الميِّت ، يتعلق معظمها بالقدس الشريف ، وأسأل : لماذا لا تكون هناك عناية قصوى بالوثائق المخطوطة المتعلقة بالقدس الشريف خاصة ، وبفلسطين بصورة عامة ؟

لقد جاء إلى هيئة البردي في عام ١٩٩٤ أربع طالبات من الجامعة العبرية ، بغرض دراسة بعض الوثائق وأوراق الكاغد ، ، ومعظمها عبارة عن عقود بيع منازل من القرون : الثاني ، والثالث ، والرابع الهجري ، فسألتهن : لماذا يردن أن يدرسن هذه الأوراق ؟ فقلن : إنهن يردن شراء بعض الأراضي الفلسطينية في هذه البقاع التي توثقها هذه الوثائق، والغرض بالطبع واضح ، إنه طمس هذه الوثائق .

إنني أتساءل في كل ندوة أحضرها : لماذا لا نعطي هذه الوثائق حَقَّها من

البحث والدراسة ؟ لقد اهتم الغرب بالبرديات ، وقتلوها بحثًا ، وأنشأوا لها المعاهد في كل البقاع ما خلا دولنا العربية !

لماذا لا تكون هناك عناية من جانب الجامعة العربية بهذه الوثائق المستهدفة ؟ إنهم يحاولون طمس الحقيقة من خلال طمس هذه الوثائق ، وأخشى أن يأتي يوم لا نجد فيه وثيقة ، نطالب بها بأرض أو بمنزل أو بحق من حقوقنا !

ولقد أرسلتُ خطابًا لجامعة آل البيت في الأردن أقول فيه : إنني مستعد للتعاون معهم من أجل صنع أرشيف وثائقي للبرديات في العالم .

■ د. عباس طاشكندي :

لابد من مراعاة الواقع والإمكانيات ، فمعهد المخطوطات - مثلاً - محدود الإمكانيات ، مثله في ذلك مثل هيئات أخرى كثيرة ، تحول قلة الإمكانيات المتاحة فيها دون تحقيق المأمول ، وعلى الرغم من هذا ، فإن هناك من الوسائل ما يجيب على سؤال د. البخيت الذي طرحه ، وهو : أين نحن من الدراسات ؟

أعتقد أنه يجب على معهد المخطوطات إلى جانب الهيئات الأخرى التفكير ، في برامج رائدة ، وفي وسائل إضافية ، فلا تقتصر على إمكانياتها فقط ، بل تُضيف إليها إمكانيات الآخرين ما دام هذا ممكنًا .

هناك هيئات أخرى - ذكر بعضها د. الحلوجي - كالفرقان ، ومركز جمعة الماجد ، وغيرهما ، هذه الهيئات من الواجب أن نتعاون معها ، إلى جانب الأفراد ؛ إذ يجب أن نعتمد عليهم في قضية ضخمة مثل قضية فلسطين تهم القاصي والداني ، فمن هؤلاء الأفراد أناس أثرياء ، أفاء الله عليهم ، ولا بأس من أن يجعلوا من أموالهم نصيبًا مفروضًا لخدمة هذه القضايا ، ومن هؤلاء الأفراد أيضًا مَنْ لديهم مجموعات من المخطوطات ، يمكن أن يتبرع بها أو يوافق على تصويرها ، الأمر الذي يُثري ثروتنا من المخطوطات .

ومن بين ما يمكن أن تفعله هيئات مثل معهد المخطوطات أن تضع قائمة بالأولويات ؛ لأن ما قاله د. الحلوجي عن الميكنة واستخدام الحاسبات يحتاج في ما يحتاج إليه إلى إمكانيات ونفقات كبيرة ؛ لهذا لابد أن نبدأ بما هو ممكن ، ونترك ما هو غير ممكن على الأقل في الوقت الحالي ، أو نضعه في الاعتبار على المدى البعيد .

كما أرى من الواجب إعداد قائمة بالافتراضات التي افتُرضت في هذه الندوة ، ثم تقدم هذه القائمة للأقسام المعنيّة ، مثل أقسا[illegible]خ واللغة العربية ، ومن ثم يتوجه الأساتذة والدارسون إلى دراسة هذه الافتراضات ، وإمكانية تحقيقها في ضوء ما هو متاح ، وبذلك تتم الفائدة دون الحاجة إلى نفقات باهظة .

كما يمكن أن يضع المعهد برنامج منح دراسية ، فالمعهد يمكن أن يكون قادرًا على جمع مادة من خلال الأفراد . وعن طريق هذه المادة يتمكن من أن يخصص منحًا دراسية لمن يراهم جديرين بهذه المنح ، ويمكن للمعهد - أيضًا - أن يتبنى فكرة إنشاء كراسي ، فيكون هناك كرسي لدراسة التراث الفلسطيني ، وكرسي للبرديات ، وهكذا ، وتكون هذه الكراسي بأسماء أشخاص ، ومن ثم تكون مصدر تمويل جديد يعتمد عليه المعهد في ما يعتمد عليه .

كما يمكن إحداث برامج لتجديد الوَقْف ؛ إذ يمكن أن يوقف بعض الأفراد للمعهد أوقافًا ، وهناك كثير من المتحمسين لذلك ، وأسأل : إلى أي مدى يقبل نظام المعهد ولائحته الهبات والتبرعات ، فالكثير من المعاهد تحدد في نظامها سبل تقبل الهبات والتبرعات ، فينبغي أن يوضع برنامج في المعهد للتعامل مع مثل هذه الأمور .

ويمكن إنشاء صناديق وقفية استثمارية ، يتم استغلال ريعها في الإنفاق على مشروعات المعهد ، كما أرى وجوب الزج بالأقسام العلمية المتخصصة بالجامعات في ما يقوم المعهد به من مشروعات ، ليزدهر وتتسع دائرة نفعه .

كل هذا يجب أن نبدأ به ، ثم نعمل بعد ذلك على تحقيق ما نادى به د. الحلوجي من إنشاء قواعد للمعلومات ، وما إلى ذلك .

■ **د. أيمن فؤاد سيد :**

أشار د. الحلوجي إلى بعض النقاط التي تفيد في جمع التراث الفلسطيني بجميع أنواعه ، ولقد أصدر الكاتب الفرنسي السويسري ماكس فان برشم في مطلع القرن العشرين كتابًا عن جامع الكتابات العربية ، وخصّ القدس بمجلد من هذا الكتاب ، ثم جاء من بعده بما يقرب من سبعين عامًا إتيان كومب ، وجان سوفاجيه ، وجاستون فييت ، ونشروا كتاب Repertoire Chronologique al' épigrabhie arabe ، وجمعوا فيه بالترتيب التاريخي - وداخل التاريخ يُرتب على المدن - النقوش التاريخية التي تعود إلى هذه المدن ، ومنها مدن فلسطينية كثيرة جدًا ، وذلك على اختلاف في هذه النقوش ، فمنها ما هو على أثر ، وما هو تحفة أثرية . . . إلخ .

وأقترح أن نستخلص من هذا الكتاب الجامع للكتابات العربية كل ما يخص فلسطين ، ونجمعه في مجلد واحد . والكتابات التاريخية الأثرية أيضًا في مجلد واحد .

وأظن أن مؤسسة ماكس فان برشم في سويسرا - وهي التي أنشأتها مرجريت برشم ، ابنة عالم الكتابات الأثرية - تستطيع أن تساهم في تمويل كتاب من هذا النوع .

أما الفهرس الخاص بوثائق الحرم القدسي ، الذي نشره دونالد ليتل ، وأصدره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، فإنه ما زال باللغة الإنجليزية ، والأرقام الموجودة فيه محتاجة إلى إضافة ، لأنه تجاوز أرقامًا كثيرة ، ولم يعرضه بطريقة مسلسلة ،

وبما أنه محفوظ في متحف الأوقاف الخاص بالقدس ، فإن الجانب الفلسطيني أولى باستكمال هذا الفهرس .

ولقد وجدت في هذا الفهرس الوثيقة الخاصة ببرهان الدين إبراهيم الناصري ، التي تحدثت عنها أمس ، والتي تذكر بيع منقولات هذا الرجل ، ومن بينها ١٥٠ عنوانًا للكتب التي كانت في مكتبته ، ومن بين هذه الكتب نسخة نادرة من « سيرة صلاح الدين » ، لابن شداد .

أما قضية البرديات فلا أحد ينكر أهميتها في دراسة التاريخ ، فهي وثيقة مادية أصلية ، نحقق منها أحيانًا النصوص الموجودة في الكتاب المخطوط ؛ لأن الوثيقة أدق وأشمل من الكتابة الأدبية ، وذلك عندما يتعلق الأمر بالحقوق كالحدود والأماكن ، ونحو ذلك .

والحق أن الجهة المعنية بالبرديات ودراستها هي المتاحف أو المكتبات الوطنية ؛ لأن المخطوطات والبرديات والأرشيف ، كل منها يكمل الآخر ، ولا يمكن الاستغناء عن أيها ، فهو عمل متكامل إذن .

وإذا كان الموضوع يخص الهوية الفلسطينية فلابد من تكامل الجهود .

■ د. محمد عدنان البخيت :

أذكر - في ما يتعلق بالبرديات - أنني زرت هايدلبرج في عام ١٩٧٦ ، ورأيت هذه المجموعة من البرديات التي أشار إليها د. أيمن ، وأقول مثله : من يدرس هذه الوثائق ، وبأي صيغة يدرسها ؟ كما أشير إلى أوراق الكنائس ، ألا تذكر هذه الأوراق شيئًا عن فلسطين ؟ لقد استغل « يوتيان » هذه الأوراق ، وجعل من خلالها البحر الأبيض المتوسط منطقة تجارية لليهود ، ما هو موقع فلسطين بعامة والقدس بخاصة من هذه الأوراق ؟ وإلى أي مدى يمكن استغلالها في قضايانا ؟ وأكرر

فأقول : يجب الاهتمام بما في مكتبة « سانت كاترين » ؛ لأنها كانت العبَّارة والجسر عبر التاريخ .

ولا شك في أن البرديات ذات أهمية ، ولكنها لا تشكل أولوية في الوقت الحالي على الأقل ؛ لأن هناك سجلات أَولى ، وأعني بذلك السجل الشرعي والأوقاف . وعلى الرغم من ذلك فلابد من القول إنه لا يوجد لدينا متخصصون في مجال البرديات ، وإن علينا أن نعد مثل هؤلاء في المستقبل القريب .

أما عما تفضل به د. عباس طاشكندي ، فالواقع يدفعني إلى أن أقول : إن الأمل معقود على طلبة الدراسات العليا ، وهم طلبة نجباء ، برامج تعليمهم مُعَدَّة جيداً ، ومعزَّزة بإجادة اللغات ، فهؤلاء - كما أثبتت التجربة - هم الأجدى في مجال هذه الدراسات .

ولكني أسأل ما هو دور المعهد أو أي مؤسسة أخرى ؟ ليس هناك تواصل بين المؤسسات المختصة ، فهي - في ما أعلم - لا تجتمع إلا نادراً ، ودرجة التنسيق بينها ضئيلة ، وهذا خلل في الإدارة يجب معالجته .

هناك مؤسسات لديها تمويل جيد ، هذه المؤسسات نحن في حاجة إلى طرق أبوابها ، والتعاون معها من أجل التراث في فلسطين . وهذه فرصة لأؤكد أننا لسنا في حاجة إلى مؤسسات جديدة ، وإنما نحن في حاجة إلى تقوية دور المؤسسات الموجودة ، خلافًا لما ذكره د. عباس طاشكندي .

أما الوقفيات ، فلا أراها تجدي ، وأقول هذا عن تجربة استمرت أكثر من ثلاثين عامًا . نحن في حاجة إلى استثارة الهمم ، وذلك عن طريق اقتناص اللحظات .

أذكر أنني في عام ١٩٨٠ زرت مكتبة جامعة جنيف ، وقمنا بالتصوير منها ، وعرضت علينا التعاون ، وأثمر ذلك نشر أحد الكتب المتعلقة بالقدس .

والحق أقول : من غير الميسور التعامل مع هؤلاء القوم ، وأرى أن الحل في العودة إلى تجميع النقوش ، وقد ذكر لي أ. خضر أنهم في الجامعة العبرية بدأوا في المجلد الثالث من جمع النقوش ، عن طريق موشي شارون ، ولعل هذا يكون محفِّزًا لنا ، يجعلنا نغذُّ السُّرى في هذا السبيل .

وأذكر أن موشي شارون هذا قال في إحدى مقالاته : إن الذي بنى سور القدس إنما هو معماري يهودي ، اسمه إبراهيم كاسترو ، معتمداً في ذلك على وقفية أو نص شرعي ، يعود تاريخه إلى القرن العاشر الميلادي . ورجعت إلى هذا النص الذي أشار إليه - وبالمناسبة توجد لدينا كل سجلات القدس - فوجدت أن كاسترو هذا رجل اعتنق الإسلام ، إلى جانب أن القراءة كانت مجزوءة ، أي أن شارون تعامل مع النص دون موضوعية . أمر آخر هو أنه إذا صح أن هذا الرجل قد اشترك في بناء السور ، فإن هذا لا يعني أنه أصبح صاحبًا له ، إذ المهم مَن دفع الأجرة ، وصمم البناء .

أما بخصوص دونالد ليتل ، فقد خدع الفتاة التي كانت مسؤولة عن هذه الأوراق التي أشار إليها د. أيمن ، وأخذها بشكل غير قانوني ، وعندما طالبناه بها ، رفض إعطاءنا إياها ، فهددناه برفع دعوى قضائية ، فأعطانا مجموعة كاملة ، قمنا باستنساخها ، وهي لا تمثل كل أوراق الأقصى ، وإنما تمثل الأوراق التي استطاع هو أن يقرأها بمعاونة بعض الأشخاص العاملين معه .

وأرى أن أوراق الأقصى بحاجة إلى فهرسة جديدة . ولأن الشيء بالشيء يُذكر ، فإني أذكر أن المرحوم فايز الغول قام بجمع النصوص الأهلية ، إلى جانب الروايات التاريخية في كل فلسطين ، وهذه الأوراق التي جمعها موجودة في الجامعة الأردنية ، وهي تمثل الفولكلور والأدب في فلسطين ، وأتمنى على أية جهة أدبية أن تُعنى بهذه الأوراق ، وتعمل على نشرها ؛ لأنها تمثل اللغة المحكية ، وما كان يشغل بال الفلسطينيين على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الأسرة .

■ د. عبد الستار الحلوجي :

تكلم د. سعيد مغاوري في البرديات ، ورد عليه د. البخيت ، وأود أن أطمئن د. سعيد بأننا لا نختلف معه على أهمية البرديات ، فهي أحد أوعية المعلومات ، ولكن الأمر أمر أولويات ، فهناك أشياء قد تكون الآن أهم من الكتب ، مثل أوراق السجل العثماني ، والسجل الشرعي ، والحرم القدسي ، وسجل الأوقاف والمحاكم ، كل هذه مصادر للمعلومات الرسمية في غاية الأهمية .

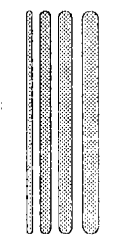
أما د. عباس طاشكندي ، فقد اقترح أشياء تحتاج إلى تعديل في اللوائح والمفاهيم ، فمسألة إنشاء الكراسي ، وقبول الهبات إلى آخر ما اقترحه ، كل هذا يحتاج إلى إجراءات عديدة ، قد تكون فوق طاقة المعهد . وأرجو أن يدخل كل ما قاله د. عباس ضمن توصيات الندوة ، وكما قال هو : نضع أولويات لهذه الاقتراحات .

* * *



الجلسة الختامية





التقرير الختامي والتوصيات

د. فيصل الحفيان

■ **د. أحمد يوسف أحمد محمد (رئيس الجلسة) :**

هذه الجلسة ليست كسابقتها ، فلن تشغل مساحة زمنية طويلة ، ولن تشهد بحوثًا علمية ومناقشات مثلها ، ولكنها ستقتصر على فقرتين : أولاهما تلاوة للتقرير الختامي ، وأهم التوصيات ، وثانيتهما كلمة ختامية عجلة أقولها ، نطوي بعدها صفحة عقد هذه الندوة ، لننظر في تالي الأيام كيف ننفذ ما أسفرت عنه .

ونبدأ بالتقرير الختامي والتوصيات ، وأدعو د. فيصل الحفيان لتلاوتها :

* * *

عقد معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ندوته السنوية الرابعة « ندوة قضايا المخطوطات » ، تحت عنوان « التراث العربي المخطوط في فلسطين » ، وذلك على مدى يومَي الاثنين والثلاثاء الموافقين ٢٣ ، ٢٤ من أكتوبر ٢٠٠٠ .

شارك في الندوة التي عقدت في فندق هلنان شبرد « قاعة عمر الخيام » نخبة من خبراء المخطوطات ، وأساتذة الجامعات المصرية ، وعدد من أعضاء الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي ، الذين وفدوا للمشاركة في الاجتماع الرابع للهيئة ، كما شارك أعضاء الهيئة الاستشارية للمعهد .

وكان ضيفا الندوة الرئيسان د. محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت ، وخضر إبراهيم سلامة مدير المتحف القدسي ومكتبة المسجد الأقصى في فلسطين . وشَرَّف الندوة بالمشاركة في رئاسة الجلسات والتعقيب على البحوث من خارج الدولة المضيفة (مصر) ، من فلسطين د. أحمد صدقي الدجاني، ومن أميركا د. عادل سليمان جمال أستاذ الأدب القديم في جامعة أريزونا بالولايات

المتحدة ، ومن العراق أسامة ناصر النقشبندي مدير دار صدام للتراث ، ومن الكويت د. عبد الله محارب مدير المعهد سابقًا ، ومستشار مركز الدراسات والبحوث الكويتية ، ومن السعودية د. عباس صالح طاشكندي عميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

عُنيت الندوة بمحورين : المحور الأول « هم السياسة والتراث في فلسطين » ، وشُغلت به الندوة في اليوم الأول والثاني « التراث في فلسطين : جهود مبكرة وتقويم » ، وشُغلت به الندوة في اليوم الثاني .

وقد بلغت عدة جلسات الندوة ست جلسات ، منها جلستان : الافتتاحية ، والختامية . وقد رأس الجلسات العلمية د. أحمد فؤاد باشا عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد ، و د. حسين نصار عضو الهيئة الاستشارية للمعهد ، و د. عبد الله محارب ، و د. أحمد مختار عمر عضو مجمع اللغة العربية ، وعضو الهيئة الاستشارية للمعهد .

بدأت الندوة بجلسة افتتاحية ، ألقى فيها د. أحمد يوسف أحمد محمد مدير المعهد كلمة ، وأعقبه د. فيصل الحفيان منسق برامج المعهد ومنسق الندوة بكلمة عرض فيها لفكرة الندوة وغرضها وأبعادها .

وأعقبت الجلسة الافتتاحية جلسة العمل الأولى ، التي جاءت في شكل محاضرة افتتاحية للدكتور كمال عرفات نبهان مدير عام مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن سابقًا ، وعَقَّب عليه د. أحمد صدقي الدجاني . وكان موضوع الجلسة الثالثة « التراث في فلسطين : واقعه ونفائسه » . ورسم فيها خضر إبراهيم سلامة خريطة تفصيلية للتراث العربي المخطوط في فلسطين ، في حين تحدث د. أيمن فؤاد سيد خبير المخطوطات عن « نفائس المخطوطات في فلسطين » ، وعقب على البحثين د. عادل سليمان جمال ، وأسامة ناصر النقشبندي .

في جلسة العمل الرابعة التي استُهل بها اليوم الثاني للندوة رصد عصام محمد الشنطي الجهود المبكرة التي تمت للتعريف بمخطوطات فلسطين ، وتلاه د. يوسف زيدان بنقد للفهارس التي صدرت لمخطوطات فلسطين . وعقب على البحثين د. فتحي عبد الهادي ، و د. عباس صالح طاشكندي .

أما الجلسة الخامسة ، فجاءت محاضرة ختامية للدكتور محمد عدنان البخيت ، تحدث فيها عن جهود الأردن في خدمة مخطوطات فلسطين ، وعَقَّب على البحث د. عبد الستار الحلوجي عضو الهيئة الاستشارية للمعهد .

واقتصرت الجلسة السادسة والختامية على كلمة د. أحمد يوسف أحمد محمد مدير المعهد ، وتلاوة التقرير الختامي والتوصيات التي جاءت على النحو التالي :

- التأكيد على أهمية التراث العربي المخطوط في فلسطين ودوره في الصراع العربي الصهيوني ، باعتباره جزءًا من ذاكرة الأمة العربية بعامة ، وذاكرة فلسطين بخاصة .

- وضع خطة متكاملة لتصوير التراث المخطوط في فلسطين تضع في اعتبارها الجهود التي قامت بها الجامعة الأردنية ، وتكملها .

- إعداد معجم للمؤلفين الفلسطينيين أو الذين كتبوا عن فلسطين ، يعرف بآثارهم وأماكن وجودها في خزائن المخطوطات ، والإفادة في ذلك من المصادر المنجزة حاليًا والإضافة إليها .

- مخاطبة المؤسسات الخاصة التي تمتلك الإمكانات المادية لتقديم العون للمؤسسات الفلسطينية .

- مراعاة الأولويات عند العمل في وضع أي عمل من أجل التراث في فلسطين ، والوضع في الحسبان توفر الإمكانات والعمل لتوفيرها .

- وضع خطة لاستعادة التراث المنهوب في فلسطين ، ويمكن الاستعانة باليونسكو لتحقيق هذه الغاية .

- وضع خطة شاملة لإنقاذ التراث العربي المخطوط في فلسطين ، يمكن أن يقوم بها معهد المخطوطات العربية بالتعاون مع المؤسسات العربية الرسمية والخاصة من ناحية ، والمؤسسات العامة في الحقل نفسه من خارج الوطن العربي .

- عقد ندوة عن التراث العربي المخطوط عن فلسطين ، حتى يأخذ الموضوع بعدًا موضوعيًا ، بعد أن أخذ التراث في فلسطين بعده الجغرافي ، وبذلك تكتمل صورة فلسطين بما يخدم قضيتها .

- تكوين جمعية عربية أهلية وإنشاء صندوق لدعم المشروعات الرامية إلى الحفاظ على التراث المخطوط في فلسطين .

زيادة الاهتمام الإعلامي وتكثيفه بقضية التراث العربي المخطوط في فلسطين .

- البدء فورًا في عمل فهرس موحد للمخطوطات في فلسطين ، سواء تلك الموجودة لدى جهات رسمية وعامة ، أو تمثل مجموعات خاصة لدى الأفراد والبيوتات والأسر .

- تدريب « كوادر » من فلسطين على العمل التراثي : الفهرسة ، والتحقيق .

- التركيز على المخطوطات الموجودة في فلسطين والمخطوطات التي تتحدث عن فلسطين ، والحث على الكتابة عنها ، والنشر لها .

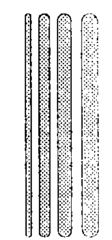
- تتبع مصير المخطوطات الموجودة في فلسطين والتي تمتلكها أسر فلسطينية معروفة وغير معروفة حتى نعرف ما آل إليه أمرها .

- لفت نظر الباحثين عامة وطلبة الدراسات العليا خاصة إلى أهمية التراث المخطوط في فلسطين وتوجيههم ليكون هذا التراث موضوعًا لرسائلهم العلمية .

- إنشاء مرصد لبيانات مخطوطات فلسطين ، وتخصيص موقع على الإنترنت لها .

- البحث عن مصادر تمويل أخرى للمعهد .

❊ ❊ ❊



كلمة الختام

د. أحمد يوسف أحمد محمد

أشكر أخي د. فيصل الحفيان على ما بذله من جهد في تجميع هذه التوصيات وصياغتها ، وأود في ختام هذه الندوة أن أشكركم جميعًا على المشاركة المؤثرة في أعمالها ، وأخص بالشكر - كما قلت في الجلسة الافتتاحية - أولئك الأساتذة الأجلاء الذين تجشَّموا مشقة الحضور من خارج مصر ؛ ليشاركوا معنا ، ويسهموا بآرائهم القيمة في أعمال الندوة .

وأخص - أيضًا - بالشكر كل من شارك ببحث أو تعقيب أو رئاسة جلسة ، ولا أنسى أن أشكر جيل الشباب الذي لاحظت دأبه على حضور جلسات الندوة ، فهذا يعطينا أملاً حقيقيًا في أن قضية التراث العربي المخطوط لها من يحملها - إن شاء الله - في مقبل الأيام .

والحق أنني سعيد - بصفة خاصة - بهذه الندوة ، فقد تميزت بمشاركة ملحوظة، من ناحية الكثافة في العدد ، والرقي في النوع ، وأعتقد أنكم تشاركونني في أن هذه الندوة كانت - بحمد الله - ندوة ناجحة ، خرجنا منها بشيء يخدم قضيتها ، قضية التراث العربي المخطوط في فلسطين بأبعاده المختلفة .

كما استطعنا أن نقف على الأهمية الفائقة لهذه القضية فهي بمثابة نجدة ثقافية إلى جانب النجدة السياسية ، وكما أن هناك معركة سياسية ، فإن هناك أيضًا معركة ثقافية ينبغي علينا أن نخوضها .

أعتقد أننا نخرج من هذه الندوة بفهم أفضل وأشمل لهذه القضية الخطيرة بكل أبعادها ، وبمعرفة أوسع عن ماهية الوسائل والأدوات التي يمكن اتباعها من أجل أن نكسب هذه المعركة ، أو على الأقل نواجه التحديات الماثلة أمامنا .

أحسب أننا أصبحنا أكثر معرفة بالصعوبات التي تواجهنا في هذا الصدد ، ولعلني أستعير عبارة د. البخيت إن قلتُ : إننا عندما نتحدث عن الصعوبات ، لا نتحدث عنها للتيئيس ، وإنما لكي نعرف ما نحن مقدمون عليه .

لقد لاحظتم أن جل الآراء والتوصيات وُجهت إلى المعهد ، ونحن نَشْرُف بهذه المسؤولية ، ونسعد بها ، ونتقدم لحملها - بطبيعة الحال - قبل هذا الكلام ، ولا يخفى عليكم أن الموارد قليلة ، ولكننا نسعى في اتجاهات مختلفة ، نسعى إلى زيادة الموارد قدر المستطاع ، وإلى أن نُحسن إنفاق هذه الموارد القليلة المتاحة ، وإلى تحقيق ذلك العمل المهم ، وهو التنسيق بين الجهات والمؤسسات المعنية .

ولعل الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي التي تنعقد في رحاب معهد المخطوطات تستطيع أن تقوم بدور مؤثر في هذا التنسيق .

إننا نسعى إلى وضع قائمة للأولويات ، فليس صحيحًا أننا نستطيع أن نفعل كل شيء في الوقت نفسه .

ومن خلال التنسيق بين معهدي البحوث والدراسات العربية ، والمخطوطات العربية استُصدر قرار بأن يكون هناك برنامج للدراسات العليا ، كجزء من تطوير معهد البحوث ، هذا البرنامج يتعلق بالتراث العربي المخطوط ، وسيستفيد المعهد - بالطبع - بالبنية العلمية فيه ، هذا عند وضع الأسس العلمية لهذا البرنامج والبحث عن الأسس التمويلية ، والحق أننا نحتاج إلى ما هو أكثر من هذا ، ولسوف نقوم بمشاورات علمية على أوسع نطاق بما يخدم هذا الموضوع .

هذا مثال سقته للتدليل على ما يمكن أن يُنجزه التنسيق الجيد على الرغم من قلة الموارد المتاحة . ونخطط - بإذن الله - إلى أن يبدأ هذا البرنامج بحلول العام الدراسي المقبل ، وأملنا كبير في أن ينجح مثل هذا البرنامج بمشاركتكم ومشاوراتكم

في أن يقدم خدمة حقيقية لإعداد جيل جديد من المهتمين بقضايا التراث العربي المخطوط ، والقادرين على التصدي للمهامّ الشائكة والصعبة والمعقدة التي تنطوي عليها معركة حماية التراث والحفاظ عليه كمحور لهوية هذه الأمة ، وحاضرها ومستقبلها ، إن شاء الله .

أكرر شكري لحضراتكم جميعًا على مشاركتكم التي لولاها ما توصلت هذه الندوة إلى شيء مما توصلت إليه ، ولقاؤنا متكرر - بإذن الله - في مجالات متعددة لأنشطة المعهد ، والسلام عليكم .

* * *